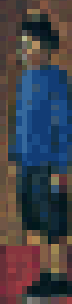
غابرييل غارسيا ماركيز

مئة عام من العزلة







البقاء. وخلال إقامته في البيت، كان يخلع ثيابه كل ثلاثة أيام، بينما يبقى في السروال، ريثما تغسل ملابسه، لأن حوائجه كلها كانت عند بيترا كوتيس. وقد عمد إلى التسلية والتسرية عن نفسه، لعله يزجي أوقات فراغه، بإصلاح ما خرب في الدار. فأصلح مفصلات الأبواب ومفاصلها، وشحّم الأقفال والغالات، وشدّ براغي المزالج ومساميرها، وعدّل ما كان مائلاً منها. وقد أمضى بضعة أشهر، ينتقل من مكان إلى آخر في الدار، وهو يحمل علبة الأدوات، التي يظن أن الغجر قد نسوها هناك أيام خوزيه أركاديو بوينديا.

ولسبب غامض من الأسباب، يمكن أن يعزى إلى الرياضة القسرية، أو إلى السأم الشتويّ، أو ما ينشأ من الإمساك عن تناول الطعام أو الرغبة عنه، بدأت سمنته تخف تدريجاً، وكأنه قربة ماء جلدية أصابها شيء من التنفيس. وغدا وجهه أشبه بسلحفاة فاغرة فاها وشحبت فغابت الدموية من عروقها. وخفّ الانتفاخ المزدوج تحت ذقنه، وبدا جسمه أقل تشوّهاً وصفاقة، وصار يستطيع ربط سيور حذائه بنفسه.

وعندما شاهدته فيرناندا يثبت مقابض الأبواب، ويصلح الساعات، دهشت وتساءلت في نفسها ما إذا كانت قد استهوته عادة صنع الأشياء وفكها وتركيبها، كما كان يفعل العقيد أوريليانو بوينديا في سمكاته الذهبية الصغيرة، أو كما كانت تفعل أمارانتا بأزرار ثيابها ثم بكفنها، أو كما كان يفعل خوزيه أركاديو الثاني بالرقاق والصحائف في عزلته، أو، أخيراً، كما كانت تفعل أورسولا بذكرياتها.

ولم يكن الأمر كذلك، فالذي حدث هو أن المطر كان يؤثر في كل شيء: فتنمو الأزهار والأعشاب بين عجلات الآلات إذا لم تزيّت مرة كل ثلاثة أيام. كما كانت أسلاكها تصاب بالصدأ، وتنمو أشتال الزعفران على الغسيل الرطب وفي المطارح الرطبة. ولم يكن الجو رطباً وحسب،

فقد فاضت المياه في كل مكان، حتى صار بوسع السمك أن يسبح داخلاً من الأبواب، متنقلاً بين الغرف، خارجاً من النوافذ.

استيقظت أورسولا ذات صباح، وهي تشعر بدوار خفيف. وأدركت أن نهايتها قد اقتربت. فطلبت أن يؤتى لها بالأب أنطونيو إيزابيل، حتى ولو جيء به محمولاً. ولكن سانتا صوفيا اكتشفت، بعد فترة، أنّ طائفة من العلق كانت تغطي ظهرها. فانتزعوها لها، واحدة بعد الأخرى، بكيّها بالحديد المحمى، قبل أن تمتص دمها. وفُرض على أهل الدار أن يحفروا في باحاتها قنوات لتصريف المياه، وتخليص الدار من الضفادع والحشرات المائية الأخرى. وبذلك تجف أرض الدار والغرف، ويمكن عندها رفع قطع القرميد التي وضعت تحت قوائم الأسرّة بسبب الماء، كما يمكن لأهل البيت أن يتنقلوا بأحذيتهم فيه.

واستغرق ذلك العمل أوريليانو الثاني، وملأ كل وقته، حتى إنه لم يفطن إلى علامات الشيخوخة التي بدأت تظهر عليه. وحلّ يوم غابت شمسه مبكرة، بينما كان يتأملها، وإذا به فجأة يذكر بيترا كوتيس دون أن ترتجف له جارحة. وكان عندها لم يعد يجد غضاضة في الرجوع إلى حب فيرناندا السقيم، بعد أن أمدها تقدم العمر بمهابة أضيفت إلى جمالها. ولكن تواصل المطر كان ينجيه من نزق العواطف، ويرفده بصفاء النفس، الذي كان بدوره يستغرق نهمه. واستسلم للتأمل في ما كان يمكنه أن يفعل في أثناء هطول المطر، الذي كان قد مضى على بدايته قرابة عام.

كان أوريليانو الثاني من أوائل الذين استوردوا صفائح التنك إلى ماكوندو. فسبق بذلك شركة الموز، إذ كان له الفضل بجعل استعمالها في البيوت أمراً مألوفاً ومرغوباً فيه. ولم يكن غرضه، حينذاك، أبعد من أن يغطي بالصفائح غرفة نوم بيترا كوتيس، ليسعد بإحساسها العميق

بالحب والمودّة والرقة، لدى سماعها أصوات تساقط المطر عليها. ولكنه ظل متبلد الحس إزاء الذكريات البلهاء العائدة لأيام شبابه الطائش. وكأن أخريات حفلاته الماجنة قد استنفدت كل ميله الموروث إلى البذخ والتبذير. فلم يبق له من ذلك سوى القدرة، على تذكره دون مرارة ودون عذاب الضمير. وكأن الطوفان قد وفّر له فرصة للخلوّ إلى نفسه والتأمل في أحواله. وكأنّ حمى أدوات التصليح حرّكت في نفسه طاقات كامنة فيه لممارسة حرف ومهن كثيرة كان يستطيع مزاولتها، ولكنه لم يفعل طوال عمره إذ لم تمكنه ظروفه من الاختيار والقرار. وأغرته الحياة العائلية الهادئة، وطغى عليه ميل للاكتفاء بالميسور، مع الانصراف كلياً إلى التأمل في الحياة.

ولم يكن الميل وليد ساعته، فقد كان مزروعاً فيه منذ زمن بعيد، وجاء المطر لينبشه من جوف باطنه. وكان سبق لهذا الميل أن نما وترعرع في الفترة التي كان يقرأ فيها، في غرفة ملكيادس، القصص عن بساط الريح والحيتان الهائلة التي تلتهم السفن بركابها، وغيرها من قصص العجائب.

كان خروج أوريليانو الصغير إلى الشرفة، خلال لحظة إهمال من فيرناندا في يوم كذلك اليوم. وعندها علم جده بسرّ وجوده. فقصّ له شعره، وألبسه ثياباً، وعوّده ألاّ يخاف الناس بعد اليوم. ثم ما لبث أن تبيّن أن ذلك الصغير شبيه كل الشبه بالعقيد أوريليانو بويندبا، بوجنتيه البارزتين، ونظرته الساهمة الذاهلة أبداً، وسلوكه الانفرادي المتوحد.

وهدأت وساوس فيرناندا، واطمأنّ بالها. فقد أدركت، منذ وقت طويل، أنها كانت قد تمادت في غرورها وكبريائها. وودّت لو تستطيع أن تصلح الأمور، ولكنها لم تعرف إلى ذلك سبيلاً. كانت دائمة التفكير في الحلول، ولكنها لم تجد حلاً واحداً مقبولاً. فلو أنها علمت، من قبل،

أن أوريليانو الثاني كان من الممكن أن يحمل المسألة محمل العاطفة، ويتقبلها بحب الجد الطيب، لأمكنها أن تجنب نفسها العناء وعذاب سنة بكاملها من التردد ومحاولات التمويه في الوقائع على الآخرين.

وقد وجدت أمارانتا أورسولا، التي بدأت أسنانها بالظهور، في ابن أختها سلوى رائعة لها من الملل الذي يسببه تواصل هطول المطر. وتذكر أوريليانو الثاني الموسوعة (الأنسيكلوبيديا) الإنجليزية في غرفة ميمي القديمة. فبدأ يعرض الصور على الطفلين، ولا سيما صور الحيوانات، ثم الخرائط الجغرافية وصور البلدان النائية، والشخصيات المشهورة. ولما كان يجهل اللغة الإنجليزية جهلاً تاماً، ولا يستطيع أن يميز سوى المدن والشخصيات المشهورة، فقد جعل يخترع الأسماء والقصص الخرافية، عله يشبع رغبة الأطفال في حب الإطلاع، التي لا تعرف الحدود.

كانت فيرناندا على يقين شبه تام من أن زوجها، أوريليانو الثاني، لا بد عائد إلى محظيته، ولم يكن ينتظر سوى توقف المطر. ولكم كانت تخشى، في شهور المطر الأولى، أن يحاول الدخول عليها في غرفة نومها، فتعاني من مغبة إعلامه بأنها، منذ ولادة أمارانتا أورسولا، لم تعد قادرة على إرضاء رغائبه. ولقد كان هذا الأمر سبب مراسلاتها المحمومة مع الأطباء المجهولين. وقد انقطعت تلك المراسلات نتيجة للكوارث التي حلت بالبلدة وعطلت البريد. وكان سبق لها في الأشهر الأولى من الاضطرابات، التي شاع فيها أن القطارات كانت تخرج عن خطوطها، أن استلمت رسالة من الأطباء المجهولين تفيد أن رسائلها لا تصلهم.

ولما توقفت صلات التراسل بين فيرناندا والأطباء المجهولين، فكرت جدياً بأن تضع على وجهها قناع النمر الذي لبسه زوجها يوم المهرجان الدامي، لكي يفحصها أطباء شركة الموز، بعد أن تتخذ لها اسماً مستعاراً، فلا يعرفها أحد. وحال دون تنفيذ تلك الخطة أنّ واحداً من

الذين اعتادوا زيارة البيت، لينقلوا أخبار الطوفان إلى أهله، قد أعلمها أن شركة الموز قد فككت مستوصفها ونقلته إلى مكان تقل فيه الأمطار. وعندها فقدت فيرناندا الأمل، وقررت أن تنتظر توقف الأمطار، وعودة خدمات البريد. وخلال فترة الانتظار، كانت تعمد إلى تخفيف آلامها ومعاناتها المكبوتة بوسائل من ابتكارها. فقد كانت تفضل الموت ألف مرة على الطبيب الوحيد الباقي في ماكوندو. وهو طبيب فرنسي غريب الأطوار، يتغذّى بالعشب كالحمير.

وتقرّبت فيرناندا من أورسولا، علّها تجد عندها علاجاً لما تحطم فيها. ولكن عادتها في الالتواء، وعدم تسمية الأشياء بأسمائها، كانت تجعلها تعكس الأشياء، فتقدم ما ينبغي أن تؤخر، وتستعمل «أخرج» أو «نفى» بدلاً من «ولد» أو «أنجب»، و«الحريق» بدلاً من «التدفق»، و«الانزعاج» بدلاً من «الالتهاب»، لعلها تخفف بذلك من خجلها مما تتحدث عنه. فاستنتجت أورسولا من حديثها عن مرضها أن الأعراض أعراض مرض معويّ لا أعراض مرض مهبلي. فنصحتها بأن تتناول، قبل الطعام، جرعة من الكالوميل.

والواقع أن المطر لو لم يهطل، فيزيد من آلام فيرناندا ويسبب انقطاع مراسلاتها، لما اختلف الأمر عندها كثيراً. فقد أمضت حياتها بطولها وكأن المطر متواصل لا ينقطع أبداً. ولم يكن مرض فيرناندا مما يسبب لصاحبه خجلاً، إلاّ إذا كان مصاباً أصلاً بمرض الخجل. وهكذا، لم تعدّل فيرناندا مسار حياتها اليومية. فقد رفعت طاولة الطعام على ألواح من القرميد، ورفعت الكراسي على قطع من الخشب، لتجنب الطاعمين بلل أقدامهم. ولم تنس أغطية الكتان والأواني الصينية والشمعدانات وقت العشاء.

كان من رأيها أن الكوارث الطبيعية لا تستأهل أن يغير الإنسان تقاليده

الرفيعة.

ولم يخرج أحد من الدار خلال تلك الفترة. ولو كان الأمر بيد فيرناندا، لما أذنت لأحد بالخروج حتى قبل أن يهطل المطر بزمن طويل. ذلك أن الأبواب، عندها، قد اخترعت لكي تظل مغلقة. أما حب النظر إلى ما يجري في الشوارع فقد كان عندها من عادات الساقطين والساقطات. وعلى الرغم من ذلك، كانت هي أول من نظرت إلى ما كان يجري في الشارع عندما وصلها نبأ مرور جنازة العقيد جيرينيلدو ماركيز. يومها جلست قرب النافذة، وهي نصف مفتوحة، تشهد الجنازة، وقد غمرها حزن شديد. ولكنها أنّبت نفسها، من بعد، وأسفت أسفاً شديداً رافقها مدة طويلة، بسبب لحظة الضعف تلك التي مرت بها.

لم يكن بوسع فيرناندا أن تتصور جنازة في مثل بؤس تلك الجنازة، أو تثير ما أثارته من الحزن. فقد وضع النعش على متن عربة تجرها الثيران، وتجلله قبة مبنية من أوراق شجر الموز. وكان المطر ينهمر غزيراً، مما يجعل الشوارع مليئة بالوحل والعثير، فتتعثر عجلات العربة، بين الخطوة والأخرى، وتكاد تنهدم القبة المرفوعة فوق النعش. وكانت جداول المطر الحزين المنهمرة تغسل العلم المرفوع فوق النعش، وهو ذلك العلم نفسه الملطخ بالدم والتراب ومسحوق البارود، والذي طالما كان ينكره أشجع المحاربين المخضرمين. وقد ركِز فوق النعش أيضاً ذلك السيف المعروف بمدلّياته النحاسية والفضية، وهو السيف نفسه الذي كان العقيد جيرينيلدو ماركيز يعلقه على المشجب في الصالة، قبل أن يدخل بلا سلاح إلى مشغل خياطة أمارانتا.

وكان يسير وراء العربة بعض الحفاة، وقد رفعوا أرجل بناطيلهم. وهم آخر الأحياء ممن شهدوا معاهدة الاستسلام في نيرلانديا. كانوا يخوضون في الوحل، يحمل الواحد منهم بإحدى يديه عصا، هي مهماز الفلاحة،

ويحمل باليد الأخرى إكليل زهر أفسد المطر ألوانه. فكانوا يبدون، من بعيد، كأنهم سراب يتراءى في الشارع الذي ما يزال يحمل اسم العقيد أوريليانو بوينديا. فإذا ما قاربوا دار العقيد ألقوا نظرة عليها قبل أن يصلوا إلى زاوية الساحة العامة. وهناك طلبوا المعونة من الآخرين، كي يساعدوهم في إخراج العربة من الوحل الذي علقت فيه.

في تلك اللحظة، طلبت أورسولا من سانتا صوفيا أن تحملها إلى عتبة الدار، حيث تابعت مسيرة الجنازة باهتمام شديد، لم يكن بوسع أحد أن يقدر معه أنها كانت لا ترى. وقد رفعت يدها الملائكية الرسولية تحركها على وقع عجلات العربة. ثم صاحت قائلة:

– وداعاً يا جيرينيلدو. وداعاً يا بنيّ. بلغ تحياتي لأحبائي، وأبلغهم بأنني سوف أراهم عندما يتوقف المطر عن الهطول.

وأعانها أوريليانو الثاني في العودة إلى سريرها، وسألها، بمرحه المعهود معها، عن معنى ذلك الوداع. فقالت له:

ـ إنها الحقيقة. فأنا لا أنتظر إلاّ توقف المطر كي أموت.

استرعت حالة الشوارع المزرية انتباه أوريليانو الثاني. ونبّهته. فقد قلق، أخيراً، بشأن مصير حيواناته. فوضع وعاء مشمّعاً على رأسه وكتفيه، ومضى مباشرة إلى بيت بيترا كوتيس. فوجدها في فناء الدار، وقد غمرتها المياه حتى خصرها وهي تحاول تعويم جثة حصان نافق. فتناول أوريليانو الثاني رافعة حديدية، وساعدها في تعويم الجثة. فدار الحيوان المنتفخ حول نفسه كالجرس، ثم انزلق في سيل الطين المائع.

كانت بيترا كوتيس تمضي وقتها كله، منذ ابتداء هطول المطر، بإخراج الحيوانات الميتة من حظائرها في ساحة الدار. وقد أرسلت، خلال الأسابيع الأولى، رسائل كثيرة إلى أوريليانو الثاني، تستدعيه لمساعدتها في معالجة الأمر. ولكنه كان يجيب بأن لا لزوم للسرعة، إذ إنّ الوضع

لم يبلغ درجة الخطورة، وبأنه سيفكر بعمل معيّن عندما يتوقف المطر ويصفو الجو. ثم أخبرته أن المراعي قد غرقت بالمياه، وأن الحيوانات صارت تلجأ إلى الهضاب، حيث لا يوجد غذاء كاف لها، وحيث تتعرض لهجمات الذئاب إذا سلمت من المرض. فأجابها أوريليانو الثاني: «لا نستطيع عمل شيء. وسوف تولد حيوانات أخرى عندما يصفو الجو وينقطع المطر».

وهكذا شهدت بيترا كوتيس موت قطعان كاملة من الحيوانات، جماعات جماعات، ولم تكن تستطيع أن تذبح منها إلاّ ما كان يغوص ويعلق في الوحل. وقد شهدت الطوفان، وهي لا حول لها ولا طول على فعل شيء، يقضي بلا رحمة ولا رأفة على ثروة كانت، حتى عهد قريب، أكبر ثروة وأقواها في ماكوندو. ولم يبق لها من كل ذلك الآن سوى رائحة النتن. وعندما قرر أوريليانو الثاني أن يذهب إليها ليرى ما كان يجري هناك، لم يجد سوى جثة الحصان، وبغلة عجفاء تنتظر في خرائب الإسطبل.

نظرت إليه بيترا كوتيس، وهو قادم نحوها بلا دهشة ولا فرح ولا حقد. ولم تعبر عن الموقف والحال التي كانت فيها إلاّ بابتسامة ساخرة. وقالت:

ـ إنه الوقت المناسب تقريباً. ولم يكن بالإمكان أفضل مما كان.

لقد شاخت بيترا كوتيس، ولم يبق منها سوى الجلد والعظم. وعيناها اللتان كانتا كحربتي رمح، أو كعيني ذئبة مفترسة، صارتا حزينتين بعد أن دجّنهما طول التحديق في المطر. وأقام أوريليانو الثاني عندها نيفاً وثلاثة أشهر، ليس لأنه شعر بأن حاله عندها كانت أحسن من حاله لدى أهله الذين كانوا في انتظاره، بل لأنه احتاج إلى كل ذلك الوقت لكي يتخذ قراره بأن يضع ذلك الوعاء المشمّع على رأسه وكتفيه. كان يردد ما كان

يقوله في البيت الآخر :

ـ لا حاجة للعجلة. فلننتظر، لعلّ المطر يتوقف في الساعات الآتية.

وقد بات، في الأسبوع الأول، قادراً على أن يألف آثار الزمن والمطر على وجه حبيبته وفي صحتها. ورويداً رويداً، عاد ينظر إليها فيراها كما كانت من قبل. فتتذكر دلالها ومرحها، وما كان عشقها يولده من خصوبة غريبة في الحيوانات. وأيقظها من نومها، ذات ليلة في الأسبوع الثاني، في دعوة لشيء من الحب، بشيء من الملاطفة والمداعبة المفاجئتين. فتمنّعت بيترا كوتيس ولم تستجب، قائلة بصوت خفيض :

ـ عد إلى نومك. فليس هذا الأوان المناسب لمثل هذه الأمور.

وحانت نظرة من أوريليانو الثاني، فشاهد نفسه في مرايا السقف، ورأى عمود بيترا كوتيس الفقري، كأنه سلسلة من حلقات ثُبّتت في سفّود متعنقد من أعصاب مهترئة ذابلة. فأدرك أنها كانت على حق، لا بسبب الزمن، بل بسبب منها ومنه، بسببهما معاً، لأنه لم تعد تشدهما تلك الأمور.

وعاد أوريليانو الثاني إلى بيته حاملاً حقائبه، وهو متيقّن أن أهل ماكوندو جميعاً، وليس أورسولا وحدها، كانوا ينتظرون انقطاع المطر كي يموتوا. كان يشاهدهم عابرين، أو قابعين في قاعات جلوسهم، تائهة أبصارهم، وقد صالبوا أيديهم على صدورهم، وهم يشعرون بأن الزمن كان يمضي دفعة واحدة، وهو زمن لا يرحم، لا يفيد فيه تقسيمه إلى شهور وسنين، وأيام وساعات، ما دام المرء لا يستطيع فيه أن يصنع شيئاً غير أن يحدّق ويطيل التحديق في المطر، وأن يتأمل ويطيل التأمل في المطر.

واستقبل الطفلان أوريليانو الثاني بفرح غامر. فأخذ يعزف لهما على الأكورديون السقيم. ولكن جلسات الموسيقى لم تشدهما كما شدّتهما

جلسات الإطلاع على الموسوعة أو الجلسات الأنسيكلوبيدية. فاستأنفاها معه في غرفة ميمي. ولعب خيال أوريليانو الثاني بالصور لعبته. فصار المنطاد الموجه فيلاً طائراً يبحث عن مكان يرقد فيه بين الغيوم. ووقع نظره، ذات يوم، على صورة فارس مهيب غريب الأبهة، تشبه هيئته هيئة آل بوينديا. فتأمله طويلاً، وتوصل إلى أن الصورة هي صورة العقيد أوريليانو بوينديا. وأراها لفيرناندا فوافقت على الشبه بين الفارس والعقيد، بل بينه وبين كل أفراد عائلة بوينديا، ولو أنها أضافت أن الأمر لا يتعدى كونه محارباً تترياً.

وهكذا، راح أوريليانو الثاني يمضي وقته بين عملاق رودس وسحرة الأفاعي. وجاءته زوجته مرة تخبره أنه لم يبق في مخزن البيت سوى كيلوغرامات من اللحم وكيس واحد من الأرز. فسألها :

ـ وماذا ينبغي أن أفعل؟.

فأجابت قائلة :

ـ لا أدري، فهذا شأن من شؤون الرجال.

فقال أوريليانو الثاني :

ـ لا بأس. فسوف تتدبّر الأمر عندما يتوقف المطر. وعاد إلى الموسوعة الإنجليزية، يهتم بها أكثر من اهتمامه بتلك المشكلة البيتية. وقد بلغ به الوضع أن اضطر للاكتفاء، في غذائه، بقطع صغيرة من اللحم وقليل من الأرز. وكان يدأب على القول :

ـ يستحيل أن نفعل الآن شيئاً. ولكن المطر لن يدوم طوال العمر.

وكان كلما أجال نظره في حاجات المؤونة الملحّة، ازدادت فيرناندا غضباً. فكانت تحتج حيناً، وتعارض حيناً آخر، ولكنها تنفجر حيناً ثالثاً. ثم تحولت تلك النزوات العارضة إلى سيل عارم من التمرد والثورة. وبدا

تعبيرها عن ثورتها، صباح ذات يوم، كنغم صادر عن قيثارة ذات وتر وحيد. وراح يرتفع مع مضي النهار ويشتد مع تقدم ساعاته. وكانت ثورتها تتخذ شكل تعنيف، لا يهدأ ولا ينقطع، لأوريليانو الثاني. ولم ينتبه الأخير إلى تلك الطريقة في تعنيفه إلاّ بعد فطور اليوم التالي، فقد سمع تلك الدمدمة التي لا ينفك صداها يتردد في أرجاء البيت. ثم صفا الصوت وبان، مرتفعاً فوق هسهسات المطر. وكان الصوت صوت فيرناندا، وهي تروح وتجيء، ساعية في البيت، شاكية من أنها نُشّئت وربيت كملكة، وانتهى أمرها إلى خادمة في بيت مجانين. فزوجها رجل كسول، وثني، داعر. ينام ملء جفنيه غير مبال، وينتظر أن تملأ السماء بيته خبزاً وسمناً وعسلاً. بينما تكد هي وتشقى، حتى تعدم كليتيها وهي تحاول أن تنقذ من الغرق بيتاً لم يعد يمسك بعضه إلى بعض سوى بقية باقية من دبابيس الضمادات والأربطة المهلهلة. أما العمل في البيت فيبدأ بعد بزوغ أشعة الشمس الأولى، ويكون متواصلاً لا يطاق ولا ينتهي حتى يحلّ الليل، فترقد فيرناندا في سريرها منهكة، وقد امتلأت عيناها قذى وغباراً. وفوق كل ذلك وبعده لا تجد من يقول لها كلمة طيبة أو من يحييها بتحية «صباح الخير»، أو يهتم بسؤالها ما إذا كانت ليلتها هادئة طيبة. لم يكترث أحد بها ليسألها، مثلاً، لماذا يبدو وجهها شاحباً أصفر، ولماذا تظهر حوالي عينيها، في الصباح، دوائر بنفسجية. ولم تكن فيرناندا، بطبيعة الحال، تتوقع مثل تلك الأمور من أفراد عائلة ما انفكت تعتبرها من المنغصات والمزعجات، أو خرقة بالية عتيقة تستخدم للقبض على القدر على النار، اتقاء لحرّها. تلك العائلة التي كانت ترى فيها ما يشبه فزّاعة مرسومة على جدار، وتنم عليها في زوايا الدار، فتنعتها تارة بالمتدينة الورعة (فأرة الكنيسة)، وتارة أخرى بالفرنسية وبابنة القصور المتعجرفة الوقحة.

حتى أمارانتا نفسها، يرحمها الله، تجرأت عليها مرة، وزعمت بصوت عال أنها تخلط بين قفاها والجمعة العظيمة، أستغفر الله، لقد سمعت كل ما يمكن أن يسمعه الإنسان، وأسوأ ما يمكن أن ينتظره. واحتملت كل ذلك، دون أن تتلفّظ بكلمة واحدة، وأسلمت أمرها للأب الأزليّ، ربها. ولكنها لم تستطع أن تحتمل ما فوق ذلك، حين زعم ذلك الشرير، خوزيه أركاديو الثاني، أن فساد العائلة واللعنة التي حلّت بها قد نجما عن أنها سمحت بالدخول عليها لامرأة دعيّة جبلية تافهة - تخيلوا أيها الناس - دعيّة تافهة جبلية كانت واحدة من بنات المناطق العالية - ماذا بقي يا ربّ؟! - دعيّة دمها أزرق، من جبلّة الأوباش أبناء الجبال الذين جلبتهم الحكومة كي يذبحوا العمال. تُرى، هل كان يعني شخصاً غيرها؟؟.

ويتابع زعمه قائلاً : فأخبروني، مشيراً إلى فيرناندا، عن تلك البنت التي كان عرّابها دوق ألبا، وعن سيدة من تلك السلالة كانت تسبب الأضطراب في أكباد زوجات رؤساء الجمهوريات بسبب الغيرة، سيدة مثلها سليلة دم نبيل، تملك حق التوقيع بأحد عشر اسماً كلها من الوطن الأم، ايبيريا، وهي الكائنة الحية الوحيدة الباقية من بلدة حافلة باللقطاء، والتي ما كانت لترتبك باستعمال ستة عشر طقماً من أدوات الطعام الفضية عندما تراها، حتى إن زوجها الداعر يكاد يموت ضحكاً، فيما بعد، وهو يقول : إن هذا العدد من الملاعق والشوكات والسكاكين لم يقصد به أن يكون للبشر، بل للزواحف. وهي الوحيدة التي كانت تستطيع أن تميز، وعيناها مغمضتان متى يقدّم النبيذ الأبيض، ومن أية جهة، وفي أي كأس، ومتى يقدم النبيذ الأحمر، ومن أية جهة، وفي أي كأس. وهي ليست كالفلاحة أمارانتا - يرحمها الله - التي كانت تظن أن النبيذ الأبيض يقدّم في النهار، بينما يقدم النبيذ الأحمر في الليل، وهي

المرأة الوحيدة، في منطقة الساحل، التي يمكنها أن تفخر بأنها لم تقض قط حاجتها إلاّ في إناء مذهّب. ومع ذلك تجرأ العقيد أوريليانو بوينديا ـ رحمة الله عليه ـ فسألها بلومه وخبثه الماسوني، من أين لها ذلك، وكيف استحقت هذا الامتياز، وما إذا كانت تخرج برازاً عادياً أم أنها تخرج ريحاناً (حبقاً) ـ فتأملوا هذا الكلام نفسه. حتى ريناتا، ابنتها ذاتها، اختبأت مرة، وراقبتها وهي تتغوّط في غرفتها، وقالت لها: إنّ الإناء فعلاً ذهب خالص وعليه شعار العائلة، ولكن ما فيه ليس سوى غائط عادي، غائط عضويّ، لا يختلف عن غائط أي من الناس إلاّ بأنه أسوأ، لأن صاحبته دعيّة سخيفة من بنات الأراضي المرتفعة. فتأملوا، حتى ابنتها هي كان هذا موقفها منها. فماذا كانت تتوقع من سائر أفراد العائلة. ولكنها، على الرغم من ذلك، كانت محقة في أن تتوقع من زوجها بعض الاحترام، لأن قدسية الزواج تجعله شريكاً لها في السرّاء والضرّاء، وحافظاً لحقوقها، وفاضّاً شرعياً لبكارتها. وهو الذي أخذ على عاتقه، بكل حرية وإرادة ووقار، المسؤولية الكبرى بإخراجها من قصر أهلها العتيق، الذي كانت تعيش فيه دون أن تشعر بالحرمان إزاء أي شيء أو بالألم من أي شيء. ولئن كانت تغزل فيه من سعف النخل أكاليل جنائزية، فلم يكن ذلك إلاّ عن لذة ومتعة وهواية تزجي بها أوقات فراغها. ذلك أن عرّابها نفسه قد كتب رسالة وقعها بيده ومهرها بخاتمه الشمعي على الغلاف، من أجل أن يقول إن يدي ابنته لم تخلقا لأعمال هذا العالم الأرضي، بل للعزف على آلة الكلافسان الموسيقية. وعلى الرغم من كل ذلك، أخرجها زوجها المعتوه من بيتها، بالتهديد والوعيد، وجلبها إلى هذه المنطقة الشبيهة بجهنم، وكأنه قدر حديدية موضوعة على النار، لشدة حرارتها التي لا يستطيع الإنسان فيها أن يلتقط أنفاسه. ومع ذلك، تركها وحدها، قبل انتهاء صوم العنصرة، راحلاً حاملاً معه صناديق الثياب وآلة الأكورديون الخاص بمجونه، كي يستمتع بالزنا مع

عشيقة شقية، يكفي أن ينظر المرء إلى قفاها ـ الذي قيل فيه ما قيل ـ ليرى حركة شبيهة بحركة مؤخرة الفرس، فيستنتج أنها امرأة. فقد كانت الصورة العكسية تماماً لفيرناندا، التي كانت تعرف كيف تظل سيدة، وتتصرف كسيدة، سواء أكانت في القصر أم في الإسطبل، على مائدة الطعام أم على السرير. فهي سيدة ماجدة من سلالة ماجدة، تخشى الرب وتأتمر بتعاليمه، وتخضع لمشيئته. ولكنها ليست المرأة التي تقبل بالخلاعة، أو ترضى بالعيش عيش الحفاة، التي يعيشها مع عشيقته التي تقبل بأي شيء، تماماً كالمومسات الفرنسيات، بل هي أسوأ منهن، لو كان له عقل يفكر به، لأنهن صادقات مع أنفسهن، على الأقل، فيضعن المصابيح المضيئة باللون الأحمر على أبوابهن. . كل التفاهات والسفاهات. . تخيلوا. . وتأملوا. . فلم يكن ينقص غير هذا، لبنت الدو ريناتا أروته والدون فيرناندو ديل كاربيو العزيزة الحبيبة. وأخص بالذكر، طبعاً، الإنسان القديس الذي يعد من أرقى طبقات المسيحيين، والفارس الحامل لوسام القبر المقدس، والمنتمي لطبقة الأخيار الذين شاء الله لهم أن تبقى أجسادهم سليمة صحيحة، كما هي، لا تبلى في قبورها، وأن تبقى جلودهم نظيفة لامعة كطيلسان ثوب العروس، وأن تبقى عيونهم حية صافية كحبات الزمرّد.

وهنا قاطعها أوريليانو الثاني قائلاً:

ـ ليس هذا صحيحاً. فعندما جيء به إلى هنا كان قد بدأ يتفسّخ وتفوح رائحته.

فقد احتمل الاستماع إليها النهار بطوله، حتى أمسك بها، متلبسة، في هذه الغلطة. ولم تكترث هي لمقاطعته وقوله، ولكنها خفضت صوتها. وتابعت في المساء عند وقت العشاء، فكانت دمدمتها بالشكوى تطغى على أصوات تساقط المطر. وتناول أوريليانو الثاني قليلاً من

الطعام خافضاً رأسه، ثم انسحب إلى غرفته مبكراً.

وفي اليوم التالي، عند الفطور، كانت فيرناندا ترتجف، وتشير هيئتها إلى أنها قد أمضت ليلة سيئة، ولو أنها أزاحت عن قلبها عبئاً كان يثقلها. وعلى الرغم من ذلك، وعندما سألها زوجها ما إذا كان يستطيع أن يأكل بيضة مسلوقة، لم تكتف بالقول إن البيض قد نفد قبل أسبوع، بل اندفعت بتأنيب وهجاء مقذع مرّ للرجال الذين لا همّ لهم سوى النظر إلى سرّة المرأة، ثم يطلبون أن تعدّ لهم وجبة طعام من كبد الطير.

وعندها صحب أوريليانو الثاني الطفلين، كالعادة، لمتابعة النظر في الموسوعة (الأنسيكلوبيديا) الإنجليزية. وتظاهرت فيرناندا بأنها كانت تريد ترتيب غرفة ميمي، كي تسمعه ما تقوله من أنه لا بد له من قدرة كبرى على الرياء والكذب حتى يزعم للطفلين المسكينين أن صورة العقيد أوريليانو بويندا هي الموجودة فعلاً في الموسوعة. وعندما أوى الطفلان إلى مكان قيلولتهما، لاذ أوريليانو الثاني بالشرفة، حيث جلس وحده، فلاحقته فيرناندا إليها. فوخزته بكلامها وعنّفته وقرّعته، وهي تواصل الدمدمة بالشكوى، كذبابة. وراحت تصفه كيف يجلس متأملاً هطول المطر كسلطان فارسي وليس في البيت ما يدور به لسان في فم. فهو زير نساء خامل كسول، لا نفع فيه ولا قيمة له، رخو كضمة قطن، تعوّد أن يعيش على حساب النساء، ثم أقنع نفسه أن بنى بزوجة كامرأة يونس التي كانت مقتنعة بقصة الحوت. واستمع إليها أوريليانو الثاني على مدى ساعتين دون أن تند عنه كلمة كأنه بات أصمّ. ولم يقاطعها حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر. وعندها عيل صبره، ولم يعد يطيق سماع صدى صوتها يرنّ في أذنيه كطبل نحاسي يؤلم رأسه ويسبب له الصداع. فرجاها قائلاً:

ـ اصمتي، رجاء.

وبدلاً من أن تصمت، رفعت صوتها قائلة:

ـ ليس هناك ما يدعوني للسكوت. ومن كان لا يعجبه أن يستمع إليّ يستطيع أن يذهب إلى مكان آخر.

وهنا فقد أوريليانو الثاني السيطرة على أعصابه، فوقف دونما عجلة، كما لو كان يتمطى، وأمسك، بغيظ وحنق هادئ مكتوم منظم مدروس، بأصص الورود وأواني الأزهار من البيجونيا والخنشار والأورين، فألقى بها الواحدة بعد الأخرى أرضاً. وحطمها تحطيماً تاماً. وذعرت فيرناندا، التي لم تكن تدرك حتى ذلك الوقت ما كان يمكن أن يكون لقولها من أثر داخليّ هائل. ولكنّ إدراكها ذاك جاء متأخراً، حتى باتت إمكانية التراجع والتصحيح أمراً عسيراً. وكان أوريليانو الثاني، ثملاً بتيار الغضب الجارف، فكسر زجاج الواجهة. وفي منتهى التباطؤ والهدوء، راح يتناول أواني المائدة، الآنية بعد الأخرى. فيلقي بها أرضاً تتشظى أمامه قطعاً صغيرة تنتشر في كل مكان. وبأقصى ما يكون التأنق والهدوء، في الأداء، وببرودة الأعصاب التي زيّن بها، من قبل جدران الدار بالأوراق المالية، انطلق يسحق الكريستال البوهيمي بضرب قطعه بالحائط، وكذلك يفعل بالأواني والزهريات المزخرفة باليد، ويتبعها بلوحات العذارى السارحات في الجندولات المحملة بالزهور، فالمرايا ذات الأطر الذهبية، ثم كل ما يمكن تكسيره، ابتداء بقاعة الجلوس والمخزن، وانتهاء بالخابية (الجرة الكبيرة) القابعة في المطبخ، والتي أحدث انحطامها في وسط الدار دوي انفجار هائل مكتوم.

ثم غسل أوريليانو الثاني يديه، وألقى الغطاء المشمع فوق رأسه وكتفيه، وغاب. وعاد إلى البيت قبيل منتصف الليل بقليل، وهو يحمل بعض قطع اللحم المملح المجفف وبضعة أكياس من الأرز والذرة المخلوطة بالسوس، وبعض قطوف الموز المتغضن. ومنذ ذلك الحين لم يعد البيت

يعرف النقص في الغذاء.

كانت فترة الأمطار المتواصلة والطوفان فترة سعيدة في حياة أمارانتا أورسولا وأوريليانو الصغير. فعلى الرغم من قسوة فيرناندا، كانا يخوضان في المستنقعات الموحلة في أرض الدار، ويصطادان السحالي فيقطعانها إرباً، ويتظاهران بتسميم الشورباء بإلقاء أجنحة الفراش فيها، عندما تغفل عنهما سانتا صوفيا. وكانت أورسولا أفضل تسلية لديهما، فقد كانت عندهما لعبة كبيرة متهالكة، يجرانها في البيت من زاوية إلى أخرى، ويموهانها بلفها بخرق عتيقة ملونة، ويدهنان وجهها بالسخام أو مستحلب السمّاق. وكادا، ذات يوم، يفقآن عينيها بالمقص، كما يفعلان بعيون الضفادع. ولم يكن يفرحهما تخريفها وحديثها.

والواقع أنه كان قد اختلّ شيء ما في عقل أورسولا، في السنة الثالثة من زمن المطر. فقد بدأت تفقد الإحساس بالواقع شيئاً فشيئاً، وصارت تخلط بين الحاضر والماضي البعيد من حياتها. فقد بكت مرة بكاء متواصلاً دام ثلاثة أيام، حزناً لا يقبل العزاء، بسبب موت جدة جدتها، بيترونيلا ايوران، وكان قد مضى على موتها نيّف وقرن. وانتهى بها الأمر إلى شيء من الضياع الغريب. فكانت ترى في أوريليانو الصغير ابنها العقيد أوريليانو في الفترة التي صحبه فيها أبوه كي يشاهد الجليد، وترى في خوزيه أركاديو، الذي كان يدرس في المدرسة الرهبانية، ابنها البكر الذي رحل مع الغجر.

وكثر حديث أورسولا عن العائلة وأفرادها وضيوفها، حتى جعل الطفلان يمثلان أناساً يجيئون لزيارتها، وهم أناس ماتوا منذ زمن طويل، أو عاشوا في فترات مختلفة من عمرها. وكانت أورسولا تجلس في سريرها، مغتبطة سعيدة، وقد غطى الرماد شعرها، واحتجب وجهها وراء منديل أحمر، تصغي لأخبار الأقارب الموهومين، والطفلان يرقبانها،

فلا تفوتهما ملاحظة دقائق الأمور وتفاصيلها، كما لو كانا يعيشانها. وتشرع أورسولا بمحادثة أجدادها عن أحداث سبقت ميلادها. فتسعد بما تسمع من أخبارهما أحياناً أخرى. وما لبث الطفلان أن أدركا، من ملاحظة لقاءاتها مع الأشباح، أنها كانت دائماً تطرح سؤالاً تستفسر فيه عمن جلب إلى البيت التمثال المصنوع من الجبس للقديس خوزيه، بالحجم الطبيعي، وطلب منها أن تحفظه له حتى يتوقف المطر.

وهكذا، تذكر أوريليانو الثاني، بهذه الطريقة، الثروة المخبوءة في مكان ما من الدار، والتي لم يعرف موضعها أحد غير أورسولا. فراح يلقي عليها أسئلة كثيرة، ذهبت كلها عبثاً، وكذلك ذهبت المناورات والحيل الذكية التي استخدمها. فقد كانت، كما يبدو، لا تزال تحتفظ ببقية من الإدراك والوعي، تمكنها، في ضياعها، من الدفاع عن سرها الذي لا تبوح به إلاّ لمن يثبت أنه صاحب الذهب المدفون فعلاً. وقد حافظت على مهارتها وقوّة ذاكرتها. فعندما علّم أوريليانو الثاني واحداً من أصحابه ورفاق ملذاته كيف يمثل أمامها دور الرجل صاحب الثروة، استطاعت أن توقعه في عدة أخطاء حين استجوبته طويلاً بأسئلة مليئة بالمصائد والمكائد الذكية.

وأخيراً، أيقن أوريليانو الثاني أن أورسولا سوف تحمل السر معها إلى القبر. فاستأجر مجموعة من الحفّارين، متذرعاً بحفر أقنية لتجفيف فناء الدار والساحة الخلفية، وبدأ يسبر غور الأرض بمعاول الحديد وكل أنواع الأدوات والأجهزة المعروفة الخاصة بالكشف عن المعادن. ومضى عليه ثلاثة أشهر، على تلك الحال، دون أن يعثر على ذهب أو ما يشبه الذهب، على الرغم من الحفر والتنقيب المضني.

فذهب إلى بيلار تيرنيزا، لعلّ أوراق اللعب تكشف ما لم يكشفه الحفّارون. وأكدّت بيلار تيرنيزا وجود الكنز، وزادت على ذلك بأن

حدّدت مبلغه بسبعة آلاف ومئتين وأربع عشرة قطعة، مدفونة بثلاثة أكياس من القنب المطليّ بالقار، وقد شُدّت بأسلاك نحاسية، ووضعت في دائرة نصف قطرها ثلاث مئة وثمان وثمانون قدماً، ومركزها سرير أورسولا. وأضافت إلى ذلك قولها إنهم لن يعثروا على ذلك الكنز إلا بعد أن يتوقف المطر، وتعود شمس حزيران (يونيو) لتسطع أشهراً ثلاثة متوالية، فتحيل الطين إلى غبار.

وبدا لأوريليانو الثاني أن المعلومات التي قدّمتها بيلار تيريزا كثيرة، دقيقة التفاصيل في غموضها، حتى إنها لتشبه قصص الروحيين وحكايات مناجاة الأرواح. فبدأ في محاولاته، مع أنه كان في شهر آب (أغسطس)، وكانت أوراق اللعب تقضي بانتظار ثلاث سنين. ولكن الذي أذهل أوريليانو الثاني، وزاد في اختلاط الأمور عنده، هو أن المسافة بين سرير أورسولا وجدار الساحة الخلفية كانت فعلاً ثلاث مئة وثمان وثمانين قدماً تماماً.

وخافت فيرناندا أن يكون زوجها مجنوناً، كأخيه التوأم، عندما شاهدته منكبّاً على قياساته. وازداد خوفها عندما سمعته يصدر التعليمات للحفّارين بأن يجعلوا الأقنية أعمق من السابق بثلاث أقدام.

وسيطر على أوريليانو الثاني نوع من الدّوار، وشيء من حمّى الاكتشاف يمكن تشبيهه بذلك الذي أصاب جدّ أبيه عندما شرع يبحث عن طريق الاختراعات. وهكذا أضاع أوريليانو الثاني أواخر طبقات الشحم والدهن الكامنة في جسمه من الماضي، وعاد إلى الشبه بأخيه التوأم بوضوح تام. ولم يكن شبهه بأخيه النحيل من حيث قامته وحسب، ولكن من حيث الهيئة المتفردة، والتقوقع على الذات والانسحاب من حياة الناس أيضاً. ولم يعد يهتم بالطفلين كما كان يفعل من قبل. وصار يأكل في أوقات غير محدّدة وغير منتظمة، بينما الوحل

يغطيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، في زاوية من زوايا المطبخ. ونادراً ما كان يجيب عن الأسئلة التي كانت سانتا صوفيا تطرحها عليه.

وعندما رأته فيرناندا يعمل على تلك الشاكلة التي لم تخطر لها، من قبل، على بال، ولم تتصور أنه يمكن أن يكون قادراً عليها، ظنت أن عناده دأب ومثابرة، وأن طمعه تضحية، وأن عناد رأسه اجتهاد ومواظبة. فتألمت وتمزق قلبها أسفاً لأنها عنفته بسبب ما ظنته كسلاً فيه.

ولكن أوريليانو الثاني لم يكن في وضع يجعله يقبل مصالحة أو اعتذاراً دافعه الإشفاق عليه، وقد سقط مرة، فغاص حتى عنقه في موحلة كبيرة تشكلت من الفروع اليابسة والأغصان الميتة والأزهار والأعشاب المتعفنة. وبعد أن فرغ من فناء الدار الخلفية، قلب عالي الحديقة سافلها. حتى إذا انتهى من كل ذلك، راح يحفر تحت الجناح الشرقي من البيت، ويذهب في العمق. وأفاق الناس ذات ليلة مذعورين ظنّاً منهم أن الذي سمعوه كان هزة أرضية، لشدة الارتجاج وأصوات التشقق المخيف الذي أحدث قرقعة هائلة. وقد نتج عن ذلك أن انهارت ثلاث من الغرف، وظهر تشقق مخيف كان يمتد من الشرفة حتى غرفة فيرناندا. وعلى الرغم من ذلك، لم يتوقف أوريليانو عن الحفر والتنقيب.

وعندما تلاشت آخر آماله، ولم يبق له سوى النكوص إلى النبوءة التي أشارت إليها أوراق اللعب، عاد إلى أساسات البيت التي خلخلها فدعّمها بالإسمنت، وسدّ الثغرة التي أحدثها. ثم بدأ الحفر تحت جناح البيت الغربي. واستمر في ذلك العمل حتى الأسبوع الثاني من شهر حزيران (يونيو) من السنة التالية. وعندها بدأ المطر يخفّ تدريجاً. وبدأت الغيوم ترتفع والسحب تتقشع شيئاً فشيئاً، وازدادت آمال الناس في أن يتوقف المطر بين لحظة وأخرى. وذات يوم جمعة، قرابة الساعة الثانية بعد

الظهـر، ظهـرت الشـمس على البـلاد والناس بنور باهت بليـد خـشـن، كغبار القرميد، طريّ كما لو كان يحمل رذاذ ماء. وتوقف المطر. ولم تمطر السماء بعدها طوال عشر سنوات طوال.

بعد المطر الطويل، استحالت ماكوندو إلى خراب: فشوارعها مستنقعات مليئة بالأثاث المحطّم المخلّع، وقد نما على جثث الحيوانات وبقايا عظامها زنابق حمراء. وكانت تلك آخر الآثار من جموع الغرباء التي هجرت ماكوندو فراراً بنفس الجنون الذي جاءت به إليها.

صارت المساكن التي برزت فجأة، أيام حمى الموز، خاوية خالية. وأزالت شركة الموز جميع مؤسساتها، فما بقي من مدينتها القديمة المسيّجة سوى الخرائب. فكأن البيوت الخشبية والباحات التي كانت أمامها، تشهد بعد الظهر لعب الورق بهدوء، قد مرّ بها إعصار مجنون فنسفها ومحاها، كما سيمحو ماكوندو نفسها عن وجه الأرض بعد سنوات من ذلك التاريخ. فالأثر الإنساني الوحيد، الذي بقي بعد العاصفة، هو قفاز لباتريسيا براون، مهجور في سيارتها التي غطتها الأزهار البرية. أما المنطقة التي اكتشفها خوزيه أركاديو بوينديا في فترة تأسيس القرية، وازدهرت أيام زراعة القطن، فقد استحالت إلى مقالع للجذور المتفحمة، ولكن المرء يستطيع أن يرى من خلال أفقها ثبج البحر الهادىء.

في يوم الأحد الأول، الذي استطاع فيه أوريليانو الثاني أن يرتدي ثياباً جافة، خرج يستطلع أوضاع البلدة وأخبارها، فعاش أزمة قاسية، وغمره حزن شديد. فالسكان الذين نجوا من الكارثة كانوا هم أنفسهم سكان ماكوندو الأصليون قبل أن تهز بلدتهم عاصفة شركة الموز. وقد رآهم أوريليانو الثاني يجلسون وسط الشوارع، يعرضون أجسامهم لنور الشمس، وما زالت على أجسادهم خضرة الأشن، تفوح منها رائحة الحبس وعفن البلل. ولكن المرء يستطيع أن يلمح على وجوههم الفرح.

فأخيراً، استعادوا بلدتهم مهبط رؤوسهم.

وعاد شارع الأتراك إلى ما كان عليه من قبل، عندما كان العرب بأخفافهم والأقراط في آذانهم، يجوبون العالم، يبدلون بالببغاوات الألعاب، أيام وجدوا في ماكوندو بقعة صغيرة من الأرض يحطون الرحال فيها، ويستريحون من عناء رحيلهم التاريخي وتجوالهم في أنحاء المعمورة.

كانت البضائع في الأسواق، خلال سني المطر، تتساقط كالحساء، ويتلوّن المعروض منها على الأبواب بألوان الطحالب والطفيليات. وقد عاث الدود بواجهات الخشب، وتآكلت الجدران بفعل الرطوبة. ولكن عرب الجيل الثالث كانوا يجلسون في المكان نفسه، في الموضع الذي جلس فيه آباؤهم وأجدادهم، صامتين، لا يهزهم الخطر، ولا ينال منهم الزمن، ولا تضعضعهم الكارثة. فقد ظلوا، كعهدهم، بعد وباء الأرق وخلال حروب العقيد أوريليانو بوينديا الاثنتين والثلاثين. فهم لا يتغيرون في حالي الحياة والموت. فلقد أظهروا قوة روحية عجيبة، صامدين أمام بقايا موائد اللعب، وعربات باعة المقليات، وبسطات التصويب وإصابة الهدف، وفي الشارع الصغير الذي كانت تفسر فيه الأحلام ويقرأ المستقبل.

وعندما سألهم أوريليانو الثاني، بطريقته المرحة المألوفة، عن الوسيلة الخفية التي استعانوا بها كي ينجوا من الكارثة العامة، وماذا فعلوا حتى سلموا من الموت غرقاً، أجابوه جميعاً، واحداً بعد الآخر، ومن باب لباب، وهم يبتسمون له ابتسامتهم الذكية، وينظرون إليه نظرتهم الحالمة بجواب واحد، دون أن يتفقوا عليه. قالوا له:

ـ بالسباحة.

ربما كانت بيترا كوتيس الوحيدة، من السكان الأصليين، التي كان لها

قلب عربي. فقد شهدت كيف خربت الحظائر الأخيرة، وكيف دمرتها العاصفة. ولكنها جاهدت كي يظل البيت قائماً. وفي السنة الأخيرة بعثت برسائل مستعجلة إلى أوريليانو الثاني تستدعيه. فأجابها بأنه لا يعرف متى يعود إليها، ولكنه سوف يحمل إليها، عند عودته، صندوقاً مملوءاً بالقطع الذهبية تكفي لفرش غرفة نومها كلها. وعندها عصرت المسكينة بقايا عروق قلبها، واستمدت منها قوة تمنحها صموداً يمكنها من الحياة إلى ما بعد الكارثة. وكظمت غيظها واستعانت بالصبر. وأقسمت، فيما بينها وبين نفسها، أن تعيد بناء الثروة من جديد، تلك الثروة التي بذّرها عشيقها، وأزال بقاياها الطوفان.

وكان قرارها حازماً، حتى إنّ أوريليانو الثاني، عندما عاد إليها بعد ثمانية شهور من آخر رسالة وصلته منها، وجدها خضراء لم تسرّح شعرها. عيناها غائرتان في محجريهما، وقد عاث الجرب في جلدها. ولكنها كانت تسجل على وريقات أرقاماً لتجعل منها لعبة الحظ «اليانصيب».

وقف أوريليانو الثاني أمامها مشدوهاً، وكان كئيباً نحيلاً قذراً، فأدركت بيترا كوتيس أن القادم كان يبحث عنها، ولكن هيئته جعلتها تظن أن الرجل لم يكن عشيقها وحبيب عمرها، بل أخوه التوأم. فقال لها:

ـ لا بدّ أنك قد جننت، إلاّ إذا كنت تريدين أن تلعبي اليانصيب على العظام.

فطلبت منه أن يلقي نظرة على غرفة النوم. وهناك رأى أوريليانو الثاني البغلة. كانت عجفاء جلداً وعظماً كصاحبتها، ولكنها، مثلها أيضاً، حية وحازمة. فقد أطعمتها بيترا كوتيس من غيظها وحنقها، بعد أن لم يبق لديها علف ولا ذرة ولا جذور. وعندها استضافتها في غرفة

نومها، حيث التهمت الأغطية القطنية، والسجاجيد الفارسية، وقطائف السرير، والستائر المخملية، ومظلة السرير الملوكي المطرزة بخيوط الذهب والمنمقة بالشرابات الحريرية.

(١٧)

كان على أورسولا أن تبذل جهوداً جبارة كي تستطيع تنفيذ وعدها بالموت عندما يتوقف المطر. وقد بدأت ومضات الوضوح، التي كانت نادرة أيام المطر، تزداد عدداً، بدءاً من شهر آب (أغسطس) عندما جعل الهواء الجاف، الذي قضى على الورد القرمزي وجفف مستنقعات الطين والوحل، يقذف على ماكوندو غباراً حارقاً، غطى إلى الأبد سطوح بيوتها من التوتياء المتأكسدة وأشجار اللوز التي بلغت من عمرها مئة عام.

وعندما تبيّنت أورسولا أنها كانت، على مدى ثلاثة أعوام، لعبة بين يدي الطفلين، حزنت حزناً شديداً وغلب عليها البكاء. ثم غسلت وجهها المصبوغ، وتخلصت من أشرطة القماش الزاهية التي كانت معصوبة على رأسها، ونزعت عن جسمها السحالي والضفادع الجافة، والمسابح والعقود العربية القديمة التي علقوها على جسمها كله. وأخيراً غادرت السرير، للمرة الأولى منذ موت أمارانتا، دون أن يساعدها أحد، لكي تعود إلى المشاركة في حياة العائلة. وكانت قوة قلبها، الذي لا يقهر، تقودها في غياهب الظلام. وكان الذين يلحظون تعثر خطواتها، ومن تصطدم بهم في طريقها، وهي تسير رافعة يدها الملائكية إلى مستوى عينيها، يعزون ذلك إلى مرضها وتعبها الجسدي. ولكن لم يفكر أحد البتة في أنها كانت عمياء. فلم تكن بحاجة إلى النظر لكي تعرف أن أصُص الزهور، التي زرعت بعناية كبيرة لدى إعادة بناء الدار، كانت قد

حطمها المطر. ثم جاءت الحفريات التي قام بها أوريليانو الثاني، فقضت على ما بقي منها، أو لتدرك أنّ الجدران والأرض الإسمنتية قد تشققت، وأن الأثاث قد تفكك وحال لونه، وأن الأبواب قد تخلعت وبارحت مصاريعها مفصلاتها، وأنّ العائلة كلها كانت ترزح تحت وطأة القنوط واللا مبالاة التي لم تكن مقبولة أو حتى مفهومة في أيام صباها.

كان تلمّس الطريق واسطتها للتنقّل بين غرف الدار الفارغة، فتسمع قرض الديدان والحشرات المستمر للأخشاب، وصوت إمعان العث فتكاً بالخزائن، وصخب النمل الأحمر الهائل الذي تكاثر زمن الطوفان، وأخذ يعيث في أثاث البيت قضماً وتحطيماً.

وذات يوم فتحت أورسولا صندوق ثيابها، حيث ثياب القديسين، فاضطرت لاستدعاء سانتا صوفيا (التقية) لتعينها في التخلص من الصراصير التي تعلقت بجسمها، بعد أن تدافعت من الصندوق حيث أحالت الثياب الموجودة فيه إلى غبار. وصاحت قائلة:

ـ لا يمكن لإنسان أن يعيش في مثل هذا الإهمال. فإذا استمرت حالنا على ما هي عليه فسوف تفترسنا الحيوانات والحشرات.

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد تعرف طعم الراحة. فكانت تستيقظ فجراً، وتحشد كل الطاقات الممكنة، وتستعين في ذلك بالطفلين. فأخرجت إلى فناء الدار بقية الثياب التي يمكن لبسها، وعرضتها للشمس، وراحت تحارب الصراصير بمبيدات الحشرات، وتكشط الدود وبقاياه وأوساخه من الخزائن والأبواب ومصاريع النوافذ، وتتصدى للنمل بالكلس الحيّ فتقضي عليه في أوكاره.

وقادتها حمى الترميم والتصليح إلى الغرف المهجورة منذ زمن، فبدأت بإزالة الركام وبيوت العناكب في الغرفة التي أضاع فيها خوزيه أركاديو بوينديا عقله وهو يبحث عن حجر الفلاسفة. وأعادت ترتيب

مشغل صياغة الفضة الذي عبث به الجنود، وجعلوا عاليه سافله. وأخيراً، طلبت مفاتيح غرفة ملكيادس لتنقذ الحالة التي آلت إليها.

وحاولت سانتا صوفيا، بكل الوسائل والحيل، أن تثني أورسولا عن عزمها، حفاظاً منها على رغبة خوزيه أركاديو الثاني، الذي منع الدخول إلى تلك الغرفة حتى تظهر له علامة حقيقية تنبئه بموعد موته. ولكن تصميم أورسولا، الذي يأبى الرضوخ، على ألاّ تدع للحشرات زاوية نائية في البيت، حتى ما كان منه غير مستعمل وغير قابل للاستعمال، جعلها تصرّ على طلبها، وتتخطى جميع العقبات التي كانت توضع في طريقها. وبعد ثلاثة أيام من الإصرار والعناد، استطاعت الحصول على المفاتيح، وفتحت لها الغرفة.

وتماسكت عندها، مستندة إلى مصراع الباب، كي لا تسقط بفعل الرائحة الكريهة التي فاجأتها. ولم يستغرق الموقف أكثر من ثانيتين حتى تذكرت أن أواني التبول الاثنتين والسبعين، التي استعملتها بنات المدرسة، كانت ما تزال هناك، وأن دورية الجنود التي جاءت، في ليلة من أوائل ليالي المطر، وفتشت البيت بحثاً عن خوزيه أركاديو الثاني، فلم تستطع أن تراه وهو جالس أمامها. وعندها هتفت قائلة :

ـ تبارك الله حامينا،

وكأنها كانت ترى كل شيء.

ـ لا يعقل، بعد كل ما بذلناه في تربيتك، أن ينتهي بك الأمر إلى أن تعيش كخنزير.

كان خوزيه أركاديو الثاني ما يزال يقرأ الرقاع. فلا يستطيع المرء أن يتبين منه، في غابة شعره الكث الكثيف، سوى أسنانه التي وشحتها خطوط من الجنزار، وعينيه الجامدتين بلا حراك. وعندما تناهى إليه صوت جدة جده ، استدار نحوها ، محاولاً الابتسام ، ثم أعاد إلى أورسولا

جملتها التي قالتها في الماضي، دون أن يعرف أنها لها. فتمتم قائلاً :

ـ وما الذي يمكن أن ينتظر. فالزمن يمضي. فأجابت أورسولا قائلة :

ـ هكذا تسير الأمور. هذا صحيح، ولكن، ليس إلى هذه الدرجة.

وعندما ذكرت هذه الكلمات، تذكرت أنها قد أجابته بما كان قد أجابها به العقيد أوريليانو بوينديا عندما كان سجيناً في الزنزانة التي مات فيها. وأصابتها قشعريرة لإدراكها دليلاً جديداً على أن الزمن لا يسير ـ وهي الحقيقة التي انتهت إلى الإيمان بها ـ بل يدور حول نفسه في حلقة مفرغة. ولكنها لم ترضخ هذه المرة كعادتها. فوبخت خوزيه أركاديو الثاني، كما لو كان طفلاً، وأصرت عليه أن يستحمّ ويحلق لحيته، ثم يساعدها في إتمام إصلاح البيت. وسيطر على خوزيه أركاديو الثاني خوف شديد من مجرد التفكير في مغادرة الغرفة التي عرف فيها السلام. فصرخ قائلاً بأنه لا توجد قوة إنسانية تستطيع إخراجه من الغرفة، لأنه لم يكن ينوي أن يشاهد قطار المئتي عربة المشحون بجثث الموتى، وهو يغادر ماكوندو كل يوم قاصداً البحر عند الغروب.

وراح يصرخ قائلاً :

ـ إنهم كل الذين كانوا في المحطة. كانوا ثلاثة آلاف وأربع مئة وثمانية.

وعندها أدركت أورسولا أن عالم الظلام الذي كان يعيش فيه كان أشد حلكة من عالمها، فهو عالم منعزل ومتقوقع ومغلق كعالم جد جده. فتركته في الغرفة، بعد أن أقنعته بضرورة ألاّ يقفلها بالغال وأن تنظفها كل يوم، وألاّ يبقى فيها سوى إناء واحد للبول، بينما يلقى بباقي الآنية خارجاً، وأن يظل هو نظيفاً ولائقاً كما كان جد جده في عزلته الطويلة تحت شجرة الكستناء.

ولم ترَ فيرناندا في كل ذلك، في البداية، سوى دليل جنون عاجز

عقيم، ولكنها أكرهت نفسها، بصعوبة، على كظم غيظها. ولكنها، في ذلك الوقت ذاته، وصلتها رسالة من خوزيه أركاديو، في روما، يخبرها فيها أنه قد قرّر المجيء إلى ماكوندو قبل أن يكرّس ويقسم اليمين الأخيرة. وفاضت حماسة لهذا الخبر، فراحت تمضي يومها في حركة دائبة لا تعرف الهدوء، حتى كانت تسقي الزهور في الدار أربع مرات في اليوم، لكي تجعل منظر البيت جميلاً، فلا يترك لدى ابنها انطباعاً سيئاً. وحفزها الترقب، وزاد نشاطها، فعادت إلى مراسلة أطبائها المجهولين. وبدلت أواني أزهار الأريجان والسرخس والبيجونيا، حتى قبل أن تعلم أورسولا أنّ أوريليانو الثاني كان قد حطمها في ثورة غضبه. ثم باعت الفضيّات، واشترت صحافاً من السيراميك، وأواني وملاعق من التوتياء للحساء. فبدت بسيطة فقيرة خزانة الأواني التي كانت تزدحم بصحاف شركة الهند الصينية والكريستال البوهيمي.

وكانت أورسولا ما تفتأ تحثُّ الجميع على العمل. وتصيح بهم قائلة :

ـ افتحوا الأبواب والنوافذ. واطبخوا اللحم والسمك. واشتروا أكبر السلاحف الموجودة. وليحضر الغرباء إلى الدار، وليفترشوا زوايا الساحة، ويبولوا على شجيرات الورد. وليصطفوا على مائدة الطعام، ليأكلوا، المرة تلو المرة، ما لذّ لهم وطاب، وليتجشؤوا وليتكلموا ما شاؤوا، وليوسخوا كل شيء بأحذيتهم. وليفعلوا بنا ما يشاؤون. فتلك هي الطريقة الوحيدة التي نبعد بها الخراب.

ولكن ذلك كله لم يكن إلاّ وهماً وعبثاً. فقد كانت أورسولا في أرذل العمر. ولم تعد قادرة على استئناف معجزتها في صنع حلوياتها، على هيئة حيوانات الكراميلا الصغيرة. ولم يرث أحد من سلالتها طاقتها وقوتها، وهكذا ظلت الدار مغلقة تنفيذاً لأوامر فيرناندا.

رحل أوريليانو الثاني بأمتعته إلى بيت بيترا كوتيس، ولم يكن لديه ما يفيض عن مجرّد تجنيب عائلته الموت جوعاً. ولكنه نجح هو وبيترا كوتيس، بإجرائهما سحب قرعة اليانصيب على البغلة، في شراء مزيد من الحيوانات وبذلك تمكنا من تأسيس مشروع متواضع لليانصيب. وراح أوريليانو الثاني يتنقل من مكان إلى آخر، طارقاً الأبواب، الواحد بعد الآخر، حاملاً بطاقات اليانصيب الصغيرة، التي أعدّها بنفسه ولوّنها بألوان مختلفة من الحبر، كي تكون جذابة مغرية بالشراء. ولكنه لم يتبين أن الكثيرين ما كانوا ليشتروها إلاّ عرفاناً بالجميل، وأن أكثر الناس كانوا يشترونها بدافع الشفقة. ولكن المشترين ـ على الرغم من شرائهم بدافع الإحسان والشفقة ـ كانوا يرجون أن يربحوا خنزيراً بعشرين سنتاً، أو عجلاً باثنين وثلاثين، وكان ذلك أقلّ ما يبعث فيهم الحماسة. فما إن يحل مساء يوم الثلاثاء حتى تزدحم بهم دار بيترا كوتيس، حتى تضيق بهم، وهم يرقبون اللحظة التي يُختار فيها طفل عشوائياً، كي يسحب من الكيس الرقم الرابح.

ثم ما لبثت هذه العملية أن تحولت إلى ما يشبه السوق الأسبوعية. فقد بدأت تظهر الطاولات في باحة الدار، منذ العصر، لأكل المقليات وتناول الشراب. وكان كثيرون ممن يواتيهم الحظ يضحون بالحيوان الذي يربحون فور إعلان النتيجة، شرط أن يقدم الآخرون الموسيقى والشراب. وهكذا وجد أوريليانو الثاني نفسه، دون قصد منه، مدفوعاً للعزف على الأكورديون، وللمشاركة في جولات النهم المتواضعة.

وأدرك أوريليانو الثاني كم هدأت حدته وخفّ حذقه، وهو المعروف بنهمه، عندما جعل يقارن بين حفلات الماضي المترفة وحفلات الحاضر المتواضعة الباهتة . فقد كان يزن ، عندما تحدته المرأة - الفيلة ، مئتين

وأربعين رطلاً(١). وقد تناقص وزنه حتى وصل اليوم إلى مئة وستة وخمسين رطلاً(٢). كان وجهه، قديماً، أشبه بوجه سلحفاة سمينة طيبة القلب، وغدا الآن أشبه بوجه إيغوانا(٣)، ويشعر دائماً بأنه متوتر وعلى وشك التعب والضجر.

أما بيترا كوتيس فلم تكن علاقتها به على ما كانت عليه قبلاً، وقد بات شعورها نحوه مزيجاً من الشفقة عليه والحب له، مدعّماً بالحاجة إلى التعاون التي تفرضها حالة الفقر التي كانت توحدهما. ولم يعد سريرها، الذي خلا من كل مظاهر البذخ والترف، مطرح لذة ومتعة، بل ملاذ يبث الواحد منهما الآخر فيه شجونه ويجتر ذكرياته.

باعا المرآة التي كانا يتراءيان فيها، في المزاد العلني، كي يشتريا بثمنها حيوانات تقدم جوائز للفائزين بقرعة اليانصيب، وبعد أن التهمت البغلة الستائر الدمشقية المخملية المثيرة للشهوة، باتا يقضيان ليلهما، بطوله، بلا نوم، عجوزين بريئين. يمضيان الليل في حسبة أموالهما، ويزجيان الوقت في تنقيل فلوسهما من كومة إلى أخرى، ذلك الوقت الذي كانا ينتهبانه في اغتراف لذائذهما ويهرقان فيه جسديهما.

وكثيراً ما كانا يثوبان إلى رشدهما، ينبههما صياح الديكة، فيدركان أنهما قد أمضيا الليل وهما يكدسان قطع النقود في كومات صغيرة، ما يلبثان أن يزيلاها، ثم يرفعان من كومة ليضيفا إلى أخرى. فهذا جزء لسد نفقات فيرناندا، وهذا جزء لشراء حذاء لأمارانتا أورسولا، وهذا آخر يعطى لسانتا صوفيا (التقية)، التي لم تشتر لها ثياباً داخلية منذ أيام العز والغنى. وهذا جزء رابع من النقود من أجل شراء تابوت لأورسولا عندما

---

(١) حوالي مئة وعشرين كيلو غراما.

(٢) حوالي ثمانية وسبعين كيلو غراما.

(٣) حيوان من الزواحف في أميركا الجنوبية حجمه بين الحرذون والتمساح الصغير.

تموت. وهذا جزء خامس لشراء البن الذي كان يزداد سعره سنتاً لكل رطل (نصف كليو غرام تقريبا) كل ثلاثة أشهر. وهذا جزء سادس لشراء السكر الذي تضاءلت تحليته، وجزء سابع للخشب الذي كان ما يزال رطباً بعد أمطار الطوفان، وثامن لشراء الورق والحبر الملوّن لصنع بطاقات اليانصيب. وأما ما بقي من النقود فكان يخصص من أجل سد العجز الذي سببه موت العجل في نيسان (أبريل)، ولم يستطيعا إنقاذ جلده إلا بأعجوبة، على الرغم من ظهور أعراض التفحم عليه. وكان كل ذلك بينما كانت بطاقات اليانصيب عليه قد بيعت كلها تقريباً. وهكذا كانت سهراتهما صلوات فقر نقية بريئة، تتم فيها طقوس توزيع الفقر، ويخصص النصيب الأكبر منها لفيرناندا، ليس تكفيراً عن ذنب أو شعوراً بلزوم الصدقة والإحسان، بل لأن بقاءها في حالة جيدة كان أهمّ لهما من بقائهما كذلك. فقد كان شعورهما تجاه فيرناندا، دون أن يدرك أي منهما ذلك، أن كليهما كان يرى في فيرناندا الابنة التي كان يتمنى لو كانت له، ولكن ذلك لم يكن. وقد وصل الأمر بهما إلى درجة أنهما، في بعض الأحيان، كان يكتفيان بأكل الفتات طوال ثلاثة أيام، لكي تتمكن هي من شراء غطاء هولندي للطاولة.

ولكنهما، على الرغم من إرهاق نفسيهما بالعمل، وعلى الرغم من التقتير على معيشتهما، ومن المشروعات التي كانا يفكران فيها، فقد كانت الملائكة ترعاهما في غفلة عنهما، وقد أضناهما التعب، بينما كانا يخبئان النقود ثم يخرجانها، محاولين ألا ينفقا أكثر مما يوفر لهما الكفاف. وقد كانا، في ساعات يقظتهما، وعندما تتدنى حساباتهما، يعجبان لما حدث في العالم، حتى لم تعد الحيوانات تتناسل وتتكاثر بالدافع والسرعة السابقتين، ولماذا تتسلل النقود من بين أصابعهما بهذه السهولة والكثرة، ولماذا صار الناس الذين كانوا قبل فترة قصيرة لا

يعبؤون بإحراق رزم المال أو بعثرتها على مآكلهم ومشاربهم، يعتبرون ذلك العمل، اليوم، ضرباً من السرقة والنهب، حتى باتوا يترددون في دفع اثني عشر سنتاً في بطاقة يانصيب على ست دجاجات.

كان أوريليانو الثاني يعتقد، في داخل نفسه، أن الذنب لم يكن ذنب العالم، وأن الخطأ لم يكن في الناس، ولكنه في مكان ما خفيّ في قلب بيترا كوتيس الغامض المجهول. فلا بد أنه قد حدث لقلبها، أيام الطوفان، حادث أدّى إلى عقم الحيوانات. وضياع المال. وقد حار في أمر ذلك السر، وودّ لو كان يدرك كنه ما كانت تكنه بيترا كوتيس، في أعماق قلبها، من مشاعر وعواطف. وقد ألحّ به التفكير حتى ألفى الحب الذي يعنيه. وصار همه منحصراً في أن تحبه هي كما يحبها. فعشقها عشقاً شديداً. أما بيترا كوتيس فكانت تزداد به هياماً شيئاً فشيئاً بقدر ما كانت تحس بازدياد حبه لها.

وهكذا إستسلمت بيترا كوتيس، في أوج الخريف من عمرها، لوهم الشباب الذي يقضي بأن تكون النهاية نهاية عاشقة. فراحا يستعيدان ذكريات حفلاتهما المجنونة، وفيض الثروة عليهما، وانغماسهما اللا محدود في العبث الأرعن والفجور، وكأنما لم تكن سوى حواجز بينهما. فيأسفان لذلك الماضي الذي دفعا ثمنه إلى أن اكتشفا أن الجنة هي في وحدة عاشقين.

وهكذا، جُنّ كل منهما بحبّ الآخر. وإذا بهما بعد سني عيشهما العقيمة معاً، ينعمان بعشق كل منهما الآخر بشكل لا يعرف حدوداً، على المائدة، وفي السرير، ويصلان لحظات السعادة، الواحدة بالأخرى، حتى انتهى بهما المطاف إلى عجوزين تالفين، ولكنهما يلهوان كأرنبين صغيرين، ويداعب أحدهما الآخر كجروين أليفين.

لم تتحسن قط عائدات اليانصيب. وقد كان أوريليانو الثاني، في

البداية، يقضي ثلاثة أيام أسبوعياً في مكتبه القديم لتربية الحيوانات، وهو يرسم، بمهارة أولية، بقرة صغيرة حمراء، أو خنزيراً أصغر أخضر، أو بضع دجاجات صغيرة زرقاء، حسب العدد المطروح لليانصيب. وكان أحياناً يحاول تقليد حروف الطباعة، في كتابة الاسم الذي إختارته بيترا كوتيس لمؤسستهما: «يانصيب العناية الإلهية». ولكنه شعر، بعد فترة قصيرة، أن رسم نحو ألفي بطاقة في الأسبوع عمل يتعبه كثيراً. فصنع أختاماً من المطاط للحيوانات والأسماء والأرقام. وهكذا قصر عمله على بلّ الأختام بنوع الحبر المطلوب، ثم طبع الأختام على البطاقات.

وخطرت لهما، في السنوات التالية، استبدال الأحاجي بالأرقام، وتقسيم الجائزة بين الذين يجدون الحل الصحيح. ولكنهما سرعان ما تبينا أن تلك العملية معقدة، وأنها يمكن أن تؤدي إلى إعتراضات كثيرة. فتخليا عنها بعد التجربة الثانية.

وتابع أوريليانو الثاني العمل على نشر سمعة يانصيبه وتدعيم شهرته، فاستغرق ذلك كل وقته، حتى لم يعد يجد متسعاً لرؤية إبنيه. وأدخلت فيرناندا إبنتها أمارانتا أورسولا مدرسة خاصة لا تقبل في الصف أكثر من ستة طلاب، ورفضت أن يدخل أوريليانو المدرسة الرسمية العامة. وقد إعتبرت أنها قد تنازلت عن الكثير من مبادئها حين سمحت له بمغادرة الغرفة. وعلاوة على ذلك، كان لا يقبل في المدارس الحكومية، في تلك الفترة، إلاّ الأبناء الشرعيون المولودون نتيجة لزواج كاثوليكي. أما أوريليانو فقد جيء به إلى البيت، وشهادة ميلاده المعلقة إلى صدّاره تعلن أنه لقيط. ولذلك أوكل أمره إلى رأفة سانتا صوفيا ونزوات أورسولا، فاكتشف عالم البيت من شروح جدتيه. ونشأ الصغير رقيقاً لطيفاً، مهيباً، طُلَعَة تشده أسئلة الكبار. ولكنه كان يغلب عليه الذهول، ويبدو عليه القلق. وتختلف نظرته عن نظرة العقيد الفاحصة النفاذة عندما كان

في عمره.

وفيما كانت أمارانتا أورسولا تمضي وقتها في روضة أطفال. كان أوريليانو الصغير يلاحق ديدان الأرض، ويطارد الحشرات ويعذبها. وقد فاجأته فيرناندا، ذات مرة، وهو يلتقط العقارب، ويحبسها في علبة معه، لكي يدسها، من بعد، في فراش أورسولا. فسجنته في غرفة ميمي (والدته)، حيث راح يمضي ساعات وحدته وعزلته بمشاهدة الصور واللوحات في دائرة المعارف (الأنسيكلوبيديا). وهناك صادفته أورسولا، بينما كانت تجوب البيت، في عصر أحد الأيام، وترشه بالماء المقطر، وتنشر فيه باقة من نبات قارص (قرّيص). فسألته عمن يكون، على الرغم من التقائها به كثيراً. فقال لها:

- أنا أوريليانو بوينديا.

فأجابت:

- هذا صحيح. ولقد آن الأوان لكي تتعلم صياغة الفضة.

ثم عادت تخلط بينه وبين ابنها من جديد، لأن الهواء الذي جاء بعد الطوفان فوسم عقلها ببعض ومضات الصحو والوضوح العابرة، كان قد مر وانقضى. ولم يعد لها عقل، قط، من بعد. فما كانت لتدخل غرفتها حتى تلتقي ببيترولينا إيغواران وقد ارتدت خراطة الكرينولين الثقيلة وصدار البوليرو المرصّع باللؤلؤ الذي كانت ترتديه كلما ذهبت إلى موعد، أو تجد جدتها ترانكويلينا ماريا مينياتا الكوكه بوينديا، وهي مقعدة جالسة في مقعدها المتحرك، تلوّح أمام وجهها بريشة طاووس، وجدّ جدها أوريليانو أركاديو بوينديا وهو يرتدي سترة تشبه سترة حرس نائب الملك، وتلتقي أباها أوريليانو إيغواران الذي اخترع دعاء يقتل دود البقر ويخرجه منها، وتلتقي أمها الورعة، وابن عمها ذا ذنب الخنزير، وخوزيه أركاديو بوينديا وأبناءها الذين ماتوا جميعاً وهم جالسون على كراسيهم

المسندة إلى الجدران وكأن ذلك كله لم يكن عندها بمثابة زيارة عائلية، بل سهرة عند رأس ميت.

وكانت تبتدع من اللا شيء حديثاً طويلاً كثير الزخرفة والتفاصيل، وتعلق على أحداث جرت في أمكنة بعيدة وأزمنة لا توافقها. فإذا عادت أمارانتا أورسولا من مدرستها، وتعب أوريليانو من تقليب دائرة المعارف، وجداها قابعة في سريرها، تحدث نفسها وغارقة في ضياع الموتى. وفي أحد الأيام، صاحت أورسولا مذعورة:

- النار. النار.

فنشرت الذعر في البيت كله. وما كان الذي أعلنت عنه سوى حريق اسطبل شهدته عندما كانت في الرابعة من عمرها.

وقد استطاعت أن تميز بين أحداث الماضي والحاضر، في مرتين أو ثلاث من ومضات الوضوح، عرفتها في أخريات حياتها قبل أن يداهمها الموت. ولم يكن أحد ليدري ما إذا كانت تتحدث، عندها، عما كانت تحس به في الحاضر أو تتذكره من الماضي.

وبدأت أورسولا تتضاءل وتتقلص وتصغر تدريجياً، حتى غدت كأنها جنين، بل كأنها كانت تتحنط وهي بعد حيّة. ثم راحت تضمر حتى باتت في الأشهر الأخيرة من حياتها كخوخة أو حبة زبيب قديمة جافة تضيع في ثنايا قميص النوم، بذراعها المرفوعة أبداً كيد فراشة. وكانت تمضي بضعة أيام بطولها بلا حركة، حتى تأتيها سانتا صوفيا فتهزها لكي تعرف أنها ما زالت على قيد الحياة، فتقعدها في حضنها وتطعمها الماء المحلّى بملعقة صغيرة. وكانت تبدو عجوزاً طفلة، أو طفلة عجوزاً ولدت لتوها. وكانت أمارانتا أورسولا وأوريليانو يجرانها وينقلانها ويؤرجحانها بين غرف الدار، وينيمانها فوق المذبح ليقيسا طولها بطول المسيح الطفل. ولم تكن أكبر منه بكثير. وقد خبّآها ذات عصر، في خزانة في المخزن،

فكادت تلتهمها الجرذان. وفي يوم من أيام أحد الشعانين، إغتنما فرصة وجود فيرناندا في الكنيسة، فدخلا غرفة أورسولا، وحملاها من رقبتها وكاحلها، وقالت أمارانتا أورسولا :

ـ مسكينة جدة جدتي، لقد ماتت من الشيخوخة. فارتعدت أورسولا ذعراً، وصاحت قائلة :

ـ أنا حية.

فحبست أمارانتا أورسولا ضحكها، وقالت :

ـ أرأيت، إنها لا تتنفس.

فصرخت أورسولا المسكينة :

ـ ولكنني أتكلم..

فقال أوريليانو :

ـ وهي لا تتكلم. لقد ماتت كصرصور صغير.

وأدركت أورسولا المسكينة الواقع، فقالت مذعنة بصوت خفيض :

ـ يا إلهي، هذا هو الموت إذن.

وعندها بدأت تلاوة مرثية طويلة، بصوت متعثر حزين متشنج عصبي، دامت أكثر من يومين. وقد حالت المرثية، من بعد، إلى مزيج من الصلوات لله، والنصائح العملية حول التخلص من النمل الأحمر كي لا يهدم البيت، وحول الانتباه إلى عدم إطفاء الفانوس المضاء أمام صورة ريميديوس، وألاّ يتزوج أحد من آل بوينديا من واحدة أخرى من تلك العائلة. لكي لا يولد لهم أبناء بأذناب خنازير.

وحاول أوريليانو الثاني أن يستغل دوارها والحالة التي كانت فيها، علها تدله على المكان الذي دفنت فيه الذهب، ولكن جهده ذهب هباء، إذ قالت أورسولا العجوز وهي في لحظات الموت :

ـ عندما يجيء صاحبه سوف يضيء الرب دربه فيجده.

وأيقنت سانتا صوفيا أن أورسولا ستموت بين لحظة وأخرى، لأنها لاحظت، في الأيام الأخيرة، إضطراباً في ظواهر الطبيعة. فقد صار للورد رائحة الآس . وقد سقط من يدها وعاء فيه حمص ، فنبتت حبات الحمص على الأرض متخذة نسقاً هندسياً على هيئة نجمة البحر. ورأت ذات ليلة سلسلة من الدوائر تعبر السماء، وكانت منيرة بلون البرتقال.

وفي يوم الخميس المقدس، وجد أهل الدار أورسولا ميتة عند الفجر، وكان، في آخر مرة ساعدوها في حساب عمرها أيام شركة الموز، قد تبين لهم أنها كانت قد بلغت ما بين مئة وخمسة عشر عاماً ومئة واثنين وعشرين.

وضعوها في صندوق أكبر قليلاً من السلة التي جيء بأوريليانو فيها، ودفنوها. وقد حضر جنازتها عدد قليل من الناس، ذلك أن الذين ظلوا يذكرونها كانوا قليلي العدد، ولأن الحر كان شديداً في منتصف ذلك النهار، حتى إن الطيور في الفضاء كانت تصاب بالدوار، فترتطم بالجدران والأشجار كوابل من الرصاص، وتصطدم بالنوافذ فتحطم أشرطتها، وتتهاوى ميتة على الأرض في الخارج، وعلى أرض الغرف داخل البيوت.

وظنّ الناس، أول الأمر، أنه نوع من الطاعون. فقد عانت ربات البيوت كثيراً من كنس الطيور الميتة، وخاصة في وقت القيلولة. وكان الرجال يحملون الطيور الميتة في عربات ويلقون بها في النهر. وفي يوم أحد الصعود، أكد الأب أنطونيو إيزابيل، الذي كان قد بلغ المئة عام من العمر، من على منبر الكنيسة، أن موت الطيور قد سببه اليهودي التائه الذي رآه في الليلة الماضية. ووصفه بأنه نغلٌ وُلِد من تصالب تيس وامرأة كافرة ، وبأنه حيوان جهنمي ، يفسد الهواء بنفسه . وإذا مرّ بحيٍّ فسوف

يلد فيه العرسان الجدد طروحاً. ولكن الذين أعاروا خطبته ورؤياه انتباهاً كانوا قلة، لأن أهل البلد، كانوا يعتقدون أن الخوري كان يهرف بما لا يعرف بعد أنه بلغ من العمر عتياً.

ولكن امرأة أيقظت الناس في الساعة الأولى من فجر يوم الأربعاء، عندما اكتشفت آثار كائن ذي رجلين ظلفاهما متشعبان. وقد كانت الآثار في غاية الوضوح، فأيقن الذين ذهبوا لرؤيتها بوجود كائن مخيف شبيه بما وصفه الخوري. واتفقوا على أن يقيموا بين بيوتهم شراكاً ومصائد. وهكذا استطاعوا القبض عليه.

فبعد أسبوعين من موت أورسولا، استيقظ أوريليانو الثاني وبيترا كوتيس مذعورين على خوار عجل في الجوار. ولما نهضا وجدا جماعة من الرجال، وكانوا عندها يحاولون إخراج الوحش، الذي توقف عن الخوار، من بين الحراب المسنونة التي كانوا قد وضعوها في قعر حفرة غطوها بورق الشجر الجاف. كان أثقل وزناً من ثور ضخم، مع أنّ له جسم فتى. وكان يسيل من جراحه سائل أخضر دهنيّ. ويغطي جسمه شعر خشن كثيف، تتخلله فجوات واضحة تعلوها طبقة من الحشف كحراشف السمك. ولم يكن يختلف عما وصفه الأب أنطونيو إيزابيل، إلاّ أن أجزاء جسمه الإنسانية كانت أقرب إلى أعضاء ملاك نحيل مريض منها إلى أعضاء رجل : فكانت يداه رقيقتين ناعمتين كيدي مشعوذ، وكانت عيناه واسعتين مكفهرتين، وعلى كتفيه ندب يدل على أثر جناحين قويين. وقد اندمل الندب وقسا مطرحه، ربما بعد أن قطعهما منجل حطاب.

علقه الناس من كاحليه على شجرة لوز، في الساحة العامة، وأبقوه على تلك الحال كي يراه الناس جميعاً. وعندما تفسخ جسده وبدأ يهترىء، وضعوه على كومة حطب وأحرقوه، ولكنهم لم يستطيعوا

تحديد طبيعته الغريبة العجيبة، أهو حيوان يلقى به في النهر، أم مسيحي يسجّى في قبر. ولم يثبت، فيما بعد، ما إذا كان هو سبب موت الطيور، ولكن العرسان الجدد لم يلدوا طروحاً حسب ما ذكرته النبوءة، كما أن درجة الحرارة لم تخفّ ولم تفتر حدتها.

ماتت روبيكا في نهاية ذلك العام، واستعانت أرجينيدا، التي بقيت في خدمتها طوال حياتها، بالسلطات المحلية لتعينها على فتح باب غرفة سيدتها، التي لم تغادرها منذ أيام ثلاثة. وعندما فتح الباب وجدت روبيكا متقوقعة في سرير عزلتها ووحدتها، وكأنها سمكة القريدس لشدة تقلص جلدها. وكان القرع قد ذهب بشعرها، وقد وضعت إبهامها في فمها.

واهتم أوريليانو الثاني بمراسم الدفن. وقد فكر في أن يرمم البيت عله يبيعه. ولكن الخراب كان قد سبقه إلى ذلك، فعاث فيه دماراً، حتى صار كأن الدمار جزء منه. فكان كلما طلى الجدران تشقّقت وتساقط عنها الدهان. ولم يستطع الإسمنت، مهما كثف، أن يحمي وجه الأرض من الأعشاب البرية الصلبة ، ولا أن يحمي السقوف والأعمدة والدعائم أمام هياج نبات اللبلاب المتمرد.

هكذا كانت الحال، وكان سير الأمور، بعد الطوفان. وقد خيّم الكسل على الناس، وداهمهم النسيان الذي راح يقضي رويداً رويداً، بلا رأفة ولا رحمة، على جميع الذكريات قديمها وحديثها، صغيرها وكبيرها. فقد وصل إلى ماكوندو، في تلك الفترة، مبعوثون من قبل رئيس الجمهورية، بمناسبة ذكرى توقيع معاهدة نيرلانديا الجديدة. وكانوا مكلفين بتسليم أوسمة العقيد أوريليانو بوينديا، التي كان قد رفض استلامها في حياته مرات كثيرة. وقد أمضى الوفد وقت ما بعد ظهر يوم بطوله بحثاً عمن يدلهم على واحد من سلالته. وكاد أوريليانو الثاني

يقبل بالأمر، ظنّاً منه أنّ الأوسمة كانت من الذهب الخالص. ولكن بيترا كوتيس أقنعته بأن في قبولها مساساً بالكرامة، بينما كان المبعوثون قد فرغوا من إعداد بعض الإعلانات والخطب للاحتفال بالمناسبة.

وفي تلك الفترة ذاتها تقريباً، عاد الغجر، آخر ورثة معرفة ملكيادس وعلومه . فوجدوا البلدة قد انطفأت وتقهقرت ، ووجدوا أهلها نائين عن سائر الناس في العالم. حتى راحوا يتخللون المنازل، ويتنقلون بين الدور، وهم يسحبون خلفهم قطع الحديد الممغنطة، وكأنها آخر ما توصل إليه العلماء البابليون الحكماء في العلوم والمعرفة. وركزوا الأشعة الشمسية على محور عدستهم الكبرى، فما عدموا من الناس من فغر فاه مشدوهاً عندما تساقطت المقالي والقدور، وما عدموا من يدفع خمسين سنتاً ، كي يشاهد ، مندهشاً ومذعوراً ، غجرية تنتزع طقم أسنانها من فمها ثم تعيده إليه.

وحل قطار أصفر ضئيل ـ لا ينقل بضاعة ولا يحمل مسافرين، ولا يتوقف في المحطة الخالية إلاّ ما ندر ـ محلّ القطار الفاخر الذي كان السيد براون يقطر عربته ذات السقف البلوري ومقاعدها الوثيرة، وقوافل الثمار ذات المئة والعشرين عربة، التي لم يكن تتابع مرورها ليتوقف طوال وقت ما بعد الظهر.

وجاء موفدون من المحاكم، لكي يحققوا في مأساة الطيور، وتضحية اليهودي التائه ، فرأوا الأب أنطونيو إيزابيل يلعب لعبة «الغميضة أو الاستغماية» مع الأطفال. وظناً منهم أن روايته كانت من هلوسات الشيخوخة، نقلوه إلى أحد مآوي العجزة. وبعد فترة وجيزة، عينوا بدلاً منه الأب أوغستو أنجيل، وهو صليبي من الجيل الجديد، متعصب، شديد الثقة بنفسه إلى درجة الغرور، جريء، لا يتردد في قرع الأجراس بنفسه عدة مرات في اليوم، كي لا يتيح للنعاس فرصة التسلل إلى

النفوس. وكان يقرع أبواب الناس، كي يوقظ الخانعين في وقت قيلولتهم فيذهبوا للصلاة. ولكنه لم يمضِ عليه عام حتى زحف التراخي إليه، وغلبه الخمول الذي تفوح رائحته في الهواء، والغبار المحرق الذي يجلب الشيخوخة للأشياء، ويدفعها إلى الرغبة في النوم، وكرات اللحم التي تقدم في طعام الغداء في أوج حرارة القيلولة التي لا تطاق.

بعد موت أورسولا، آلت الدار مرة أخرى إلى الإهمال الشديد، الذي لم تستطع حتى إرادة أمارانتا أورسولا القوية الحازمة أن تنقذها منه.

وقد استطاعت أمارانتا أورسولا تلك المرأة السعيدة، العصرية، التي لم تكن تحمل الضغائن والهموم، بل كانت راسخة العزيمة، تفتح الأبواب والنوافذ كي تهزم الخراب ـ استطاعت أن تستصلح البستان، وأن تقضي على النمل الأحمر الذي كان يسرح ويمرح بخطوطه التي لا تنقطع عبر الشرفة في وضح النهار. وقد حاولت، عبثاً، أن تحيي عادات الضيافة المنسية. فقد شكّل حب فيرناندا الشديد لحياة العزلة سداً منيعاً في مواجهة مئة عام من الانفتاح والصخب خلال حياة أورسولا. فلم تكتفِ، بعد مرور رياح الجفاف وانقضائها، برفض فتح الأبواب والنوافذ، بل إنها عمدت إلى إقفال النوافذ بألواح من الخشب المصلّبة سمّرتها عليها. وكأنها كانت بذلك إنما تستجيب لرغبة ذويها الكامنة في أن يدفنوا جميعاً وهم أحياء. وقد انتهت مراسلاتها الباهظة التكاليف، مع الأطباء المجهولين، إلى الفصل. فبعد الإرجاء والتأجيل المتكرر، والمماطلة الدائمة، أغلقت على نفسها باب غرفتها، في التاريخ والساعة المحدّدين، حسب الاتفاق، وقد لفعت نفسها بدثار أبيض، ووجهت رأسها صوب الشمال، وأحست في الهزيع الأخير من الليل بأن خرقة مبللة بسائل جليدي كانت توضع فوق رأسها.

وعندما استيقظت، كانت أشعة الشمس تتسرب من خلل ثقوب

النافذة، وكانت هي ترتدي قطعة قماش سميكة على شكل قوس تلتف عليها من الحوض إلى القفص الصدري. وقبل أن تمضي فترة الاستراحة المقررة، وصلتها رسالة، من الأطباء المجهولين، عجيبة غريبة. فقد ذكروا لها في الرسالة أنهم فحصوها خلال ست ساعات، ولم يجدوا شيئاً من الأعراض التي حدثتهم عنها مراراً وتكراراً، ووصفتها لهم بدقة وعناية.

والواقع أن عادتها السيئة، التي جرت عليها، في ألاّ تسمي الأشياء بأسمائها، قد أوقعتهم في حرج شديد، وأربكت تشخيصهم لحالتها الغريبة. فلم يجد أولئك الجراحون عن بعد (التلباثيون) لديها غير هبوط في الرحم يمكن علاجه بجهاز رافع.

أصيبت فيرناندا بإحباط شديد، بعد أن خاب أملها، فراحت تسعى للحصول على مزيد من المعلومات المفصلة والدقيقة. ولكن الأطباء المجهولين لم يعيروا رسائلها اهتمامهم، ولم يردوا عليها. وعز عليها أن توصف حالتها بأنها «غريبة». فحزمت أمرها وعزمت على أن تتغلب على خجلها. فقررت أن تستعلم عن الجهاز الرافع. فأنبئت بأن الطبيب الفرنسي كان قد شنق نفسه بإحدى خشبات السقف، لثلاثة أشهر خلت، وأن أحد رفقاء العقيد الراحل أوريليانو بوينديا في السلاح قد تولى دفنه خلافاً لإرادة البلدة كلها.

وعند ذلك لاذت فيرناندا بابنها خوزيه أركاديو، فوضعت ثقتها فيه. وأرسل لها ابنها الجهاز الرافع من روما، وزوّدها بنشرة عن طريقة استعماله. فحفظتها عن ظهر قلب، وألقت بالنشرة في المرحاض لكي لا يعرف أحد شيئاً عن طبيعة مرضها ومشكلاتها. ولم يكن لهذا الاحتياط وذلك الحذر من معنى، لأن أحداً لم يكن يهتم بأمرها، حتى من كانوا معها في البيت ما كانوا ليعيروا همومها الكثير من اهتمامهم.

فقد كانت سانتا صوفيا تعيش في عزلة الشيخوخة ووحدتها، وتمضي

القليل من وقتها في أن تعدّ لهم ما يأكلون من زاد قليل، وتكرس جلّ وقتها لخدمة خوزيه أركاديو الثاني.

وكانت أمارانتا أورسولا ـ وقد ورثت الكثير من جمال ريميديوس الجميلة ـ تقضي في تحضير دروسها الوقت الذي كانت تمضيه في العبث بأورسولا العجوز. وقد بدأ يظهر عليها من صفاء الذهن والانصراف للدراسة ما جدّد في أوريليانو الثاني الأمل الذي سبق أن ولّدته عنده ميمي. فوعدها بأن يرسلها إلى بروكسل كي تتابع دراستها، كما كانت العادة في أيام شركة الموز. ودفعه هذا الوهم إلى العمل على إعادة الحياة إلى الأرض التي دمرها الطوفان. فبات لا يأوي إلى البيت إلاّ نادراً. وكان كل همه أن يرى أمارانتا أورسولا وحسب. فقد غدا غريباً عن فيرناندا، وكان أوريليانو الصغير يزداد انزواء كلما قارب البلوغ.

كان أوريليانو الثاني متيقناً من أن الشيخوخة سوف تلين قلب فيرناندا، فتسمح للولد (أوريليانو الصغير) بأن يندمج في حياة البلدة، ولم يكن فيها من يكترث بشؤون مولده وما أحاق به من ظنون. ولكن أوريليانو نفسه كان قد بدأ يفضل العزلة والوحدة، فلم يبادر إلى أية حيلة كي يتمكن من التعرف إلى العالم الذي يبدأ، عنده، بعد عتبة الدار.

ولما فتحت أورسولا العجوز باب غرفة ملكيادس، كان يطوف حولها ويرنو إليها قرب الباب نصف المفتوح، بنظرات ملؤها الاستغراب وحب الاستطلاع. ولم يدرِ أحد بعد كيف أو متى بدأت علاقة الود بينه وبين خوزيه أركاديو الثاني. ولم يكتشف أوريليانو الثاني ذلك الأمر إلا بعد بعض الوقت، حين سمع الطفل يتحدث عن مذبحة المحطة. وقد حدث ذلك، ذات يوم، على المائدة، حين أخذ أحدهم يشكو حالة الخراب التي أصابت البلدة بعد رحيل شركة الموز. فعارضه أوريليانو الصغير بعناد صادراً في رأيه عن خبرة ونضج لا يكونان إلا لرجل راشد واع. وكانت

حجته في قوله تختلف عمّا كان متداولاً ومتعارفاً في الرأي العام. فقد كان يرى أن ماكوندو ـ وهي أرض خصبة ـ ظلت تعيش حياة هانئة رضية حتى وصلت إليها شركة الموز. فزرعت فيها الفوضى، وأفسدت حياتها، وعصرتها وامتصت خيرها كما تعصر وتمتص ثمرة يانعة. وما كان الطوفان إلاّ من فعل مهندسيها الذي صنعوه ذريعة كي يتخلصوا به من الوفاء بوعودهم وتعهداتهم للعمال.

وكان أوريليانو الصغير يتكلم بحماسة وقوة حتى ظنّت فيرناندا أنها كانت أمام صورة من مشهد المسيح مع العلماء والحكماء. فوصف الولد، بتفصيل دقيق مقنع، كيف أطلق الجيش النار على ما يزيد على ثلاثة آلاف عامل محاصرين في المحطة، وكيف نقلت جثثهم إلى قطار مؤلف من مئة عربة لكي يلقى بهم في البحر.

كانت فيرناندا، كأكثر الناس في الإقليم، تصدق المقولة الرسمية المعلنة، بأن شيئاً من ذلك لم يحدث. فساورتها الظنون بأن الطفل قد ورث نزعة الفوضويين عن العقيد أوريليانو بوينديا. فأمرته بالسكوت. ولكن أوريليانو الثاني أعلن أنه مؤمن برواية أخيه التوأم للحادثة.

والصحيح أن خوزيه أركاديو الثاني كان، عند ذاك، أذكى من في الدار، ولو أن سكان الدار قد إتهموه بالجنون. وقد علّم أوريليانو الصغير القراءة والكتابة، وساعده في دراسة الصحائف والرقاق القديمة، وغرس فيه القدرة على التعليل والتحليل الشخصي لما كانت تعنيه شركة الموز بالنسبة لماكوندو. حتى إن الناس، بعد سنين من ذلك، وعندما جعل أوريليانو يختلط بهم ويشارك في عالمهم، كانوا يظنون أن روايته من صنع خياله، لأنها كانت تتعارض، جملة وتفصيلاً، مع الرواية الكاذبة المتداولة التي تبناها المؤرخون ودوّنوها في الكتب المدرسية.

كانا يجلسان في الغرفة المعزولة الكئيبة، التي لا تدخلها الريح الجافة،

ولا ينفذ إليها الغبار، ولا تطالها الحرارة. يستعيدان رؤيا كانت تتكرر في الظهور لهما. فيريان رجلاً عجوزاً، يضع على رأسه قبعة على شكل جناح الغراب. وكان يتحدث عن العالم مديراً ظهره إلى النافذة. فيتحدث عن زمن أقدم من ميلادهما كليهما.

وقد اكتشفا معاً أن الغرفة التي تشهد فيها الرؤيا تظل ذاتها لا تتغير، وأن ذلك يحدث في يوم الإثنين من شهر آذار (مارس). وعندها أيقنا أن خوزيه أركاديو بوينديا لم يكن أبله معتوهاً كما كان يروي أفراد العائلة، بل كان الوحيد، في العائلة، الذي مكنه وضوح ذهنه وصفاؤه من أن يستشف الحقيقة الأبدية، وهي أنّ الزمان يتعثر ويحفل بالحوادث، وأنه يمكن أن يتشظى فيدع في غرفة ما واحدة جزئياته السرمدية الخالدة.

وقد استطاع خوزيه أركاديو الثاني، علاوة على ذلك، أن يصنف الرموز والحروف التي في الصحائف والرقاع. كان متيقناً من أنها لا بد أن تقابل حروفاً هجائية (ألف باء) مؤلفة من سبعة وأربعين إلى ثلاثة وخمسين حرفاً. فإذا عزل كل منها على حدة بدت كخيوط العناكب وآثار أقدام الذباب. ولكنها تبدو، بخط ملكيادس الدقيق الجميل، كغسيل منشور على حبل. وتذكر أوريليانو أنه رأى لوحة شبيهة بهذه في دائرة المعارف الإنجليزية. فجاء بها إلى الغرفة كي يقارنها بتلك التي كانت مع خوزيه أركاديو الثاني. فكانت مثلها تماماً.

في تلك الفترة التي خطرت فيها لأوريليانو الثاني فكرة تنظيم يانصيب الأحاجي، كان الرجل يستيقظ وفي حلقه غصة وعقدة، فكأنما كان يحاول مقاومة الرغبة في البكاء.

وأدركت بيترا كوتيس أن سبب اضطرابه، الذي لا ينتهي، يعود إلى وضعهما السيء، فعمدت، على مدى عام، إلى دهن سقف حنكه كل صباح بعسل النحل. كما جعلت تسقيه شراب الفجل. ولكن العقدة

ألحت على أوريليانو الثاني، حتى كان يجد صعوبة في التنفس. فذهب إلى بيلار تيريزا لعلها تدله على عشبة تخفف ألمه. ولكن تلك الجدة العجوز الصلبة، التي لا يحطمها شيء، والتي كانت عندها تدير بيتاً سرّياً للدعارة، أخبرته أنها لا تثق بأوهام المداواة. ثم استطلعت ورق اللعب في مشكلته. فرأت عنق (ملك الديناري) وقد ثقبها سيف (شاب السباتي). فاستنتجت من ذلك أن فيرناندا كانت تحاول إرجاع زوجها إلى البيت. فاتبعت لذلك طريقة سيئة، وهي غرز الدبابيس في صورته. ولأنها لم تكن خبيرة بفنون السحر تلك، سببت له ورماً داخلياً. ولما لم يكن لأوريليانو الثاني إلا الصور التي أخذت له بمناسبة زواجه، وكانت جميع النسخ في مجموعة الصور العائلية، فقد راح يبحث عنها في كل أرجاء البيت، مستغلاً فرص انشغال زوجته بشؤونها. وقد قاده البحث إلى أن اكتشف في أسفل خزانتها نصف دزينة من أجهزة الضغط الرافعة التي كانت ما تزال في علب منشئها.

وظنّ أوريليانو الثاني أن حلقات المطاط تلك كانت من أدوات السحر، فأخفى واحدة منها فيجيبه كي يريها لبيلار تيريزا. ولم تستطع بيلار تيريزا تحديد هوية الحلقة، ولكنها شكت فيها، فطلبت منه أن يحضر لها الباقيات. وأحرقتها جميعاً في نار كبيرة أوقدتها في الدار. ونصحت أوريليانو الثاني، لكي يتفادى المصير الذي أرادته له فيرناندا، أن يغمس في الماء دجاجة حاضنة، ثم يدفنها حية تحت شجرة الكستناء. فنفذ الوصية موقناً بنجاعتها. وما إن انتهى من دفنها وإهالة التراب والأوراق الجافة عليها حتى شعر أن تنفسه صار أفضل من السابق.

أما فيرناندا فقد عزت اختفاء الحلقات إلى انتقام الأطباء المجهولين منها، فخاطت في داخل صدّارها جيباً أخفته تحت البطانة، ووضعت فيه الأجهزة الجديدة التي أرسلها ابنها إليها.

وبعد مضيّ ستة أشهر على دفن الدجاجة، استفاق أوريليانو الثاني في منتصف الليل، وقد ألحّ عليه سعال متواصل شديد، حتى أحس بأن شيئاً ما يخنقه من داخله بمخالب سرطانية. فأدرك، عندئذ، أن إحراق أجهزة الضغط الرافعة السحرية، وتعاويذ أضحيات الدجاج لا فائدة منها أمام الحقيقة الوحيدة المحزنة، وهي أنه ميت لا محالة. ولم يحدث أحداً بمخاوفه. وخاف ألا يستطيع إرسال أمارانتا أورسولا إلى بروكسل لمتابعة الدراسة، قبل أن يموت. فجد في العمل أكثر من أي وقت في حياته، حتى صار ينظم سحب اليانصيب ثلاث مرات في الأسبوع بدلاً من مرة واحدة. وكان أهل البلدة يشاهدونه وهو يجوب الأحياء، حتى يصل أبعدها وأفقرها، وهو يبيع بطاقاته الصغيرة مدفوعاً بحماسة المفارقين بالموت. وكان في تجواله، يصيح بصوت عال:

ـ هنا العناية الإلهية. لا تدعوا الفرصة تفوتكم، فهي لا توافي إلاّ مرة كل مئة عام.

وكان يحاول جاهداً أن يحتفظ بمرحه ولطفه وخفة ظله. ولكن مجرد النظر إليه، وهو يتعرق شاحباً مصفراً، كان يكفي للحكم بأنه كان يبذل ما لا طاقة له به.

كان، في بعض الأحيان، يحيد عن الطريق، فيتنحى إلى أرض خالية لا يراه فيها أحد، حيث يقعد ويستريح من تلك المخالب التي كانت تمزق داخله. حتى في منتصف الليالي، وهو في أماكن اللهو الحمراء، كان يحاول تعليل النساء اللواتي كنّ يشعرن بالوحدة واليأس، يعللهن بالحظ الآتي، وهن ينتحبن قرب الحاكيات (الفونوغرافات) ذات الأبواق. فتراه يقول لهنّ:

ـ هذا الرقم لم يظهر في السحب (لم يربح) منذ أربعة أشهر. لا تدعن الفرصة تفوتكن. فالحياة أقصر مما تتصورن.

وانتهى الأمر بالناس إلى الكفّ عن احترامه. صاروا يسخرون منه. وعزفوا في الشهور الأخيرة عن عادتهم في مناداته بالدون أوريليانو، حتى بات بعضهم يسميه، في وجوده، بالسيد «العناية الإلهية». وبدا النشاز في صوته، حتى أفلت منه توازنه. ثم انطفأ الصوت أخيراً حتى بات كأنه أنين كلب. ولكن حالته لم تثنه عن الإسراع في إجراء سحب الجوائز الكبرى في دار بيترا كوتيس. وحين طال فقدان صوته، وأدرك أنه لم يعد يستطيع احتمال ألمه فترة أطول، أيقن أنه لن يتمكن من إرسال ابنته إلى بروكسل بما كان يعود عليه من يانصيب الخنازير والعجول. فعمد إلى تنظيم اليانصيب الهائل على كل الأراضي التي أتلفها الطوفان، ويستطيع أصحاب رؤوس الأموال أن يستصلحوها.

وكانت تلك مبادرة عظيمة هلّل لها رئيس البلدية، وعبّر عن استعداده للإعلان عنها بنفسه. وتألفت الجمعيات لشراء البطاقات بسعر مئة بيزو للبطاقة الواحدة. وبيعت البطاقات كلها في أقل من أسبوع. وفي ليلة السحب أقام الفائزون بالجائزة الكبرى حفلة لم يشهد لها مثيل. فكانت كواحدة من الحفلات التي كانت تنظم أيام شركة الموز المشهورة. وعزف أوريليانو الثاني، للمرة الأخيرة في حياته، على الأكورديون ألحان فرانسيسكو الرجل المنسية. ولكنه لم يستطع أن يؤديها غناء.

وبعد شهرين من ذلك الحدث، سافرت أمارانتا أورسولا إلى بروكسل. وأعطاها أوريليانو الثاني كل ما ربحه في ذلك اليانصيب الكبير، وما كان ادّخره في الشهور السابقة، وأضاف إلى ذلك ثمن البيانو الآلي والكلافسان وسائر التحف التي باعها بعد أن فقدت في البيت قيمتها.

كان ذلك المال ـ طبقاً لحساباته ـ كافياً لدراسة ابنته، فلم يبقَ عليه إلاّ أن يوفر أجر سفر عودتها إلى البلاد.

وعارضت فيرناندا تلك الرحلة حتى آخر لحظة. فقد أزعجها التفكير في أن بروكسل قريبة من بلد الضياع: باريس. ولكن الأب أنخيل هدّأ من روعها بأن زوّدها برسالة إلى مدرسة داخلية للبنات الكاثوليكيات تديرها الراهبات. ووعدت أمارانتا أورسولا بأن تعيش فيها حتى نهاية الدراسة. واستطاع الأب أنخيل أيضاً من تسفيرها مع جماعة من راهبات الفرانسيسكان، كانت في طريقها إلى طليطلة، على أمل أن يجدن أناساً يوثق بهم فيصحبونها إلى بلجيكا.

وبينما كانت المراسلات المستعجلة تسير بطريقة رائعة، لكي يتم تنسيق جوانب كل تلك الأمور بعضها مع بعض، كان أوريليانو الثاني، وبيترا كوتيس يرتبان أمتعة أمارانتا أورسولا. وفي نفس الليلة التي فرغا فيها من ترتيب أشياء الطالبة في أحد صناديق زفاف فيرناندا القديمة، كانت الطالبة تحفظ عن ظهر قلب الثياب التي ستلبسها، مع الحذاء المخملي الواطي، والتي ستقطع بها المحيط الأطلسي، وتعرف مكان المعطف الأزرق بالأزرار النحاسية؛ وحذاء الجلد القرطبي الذي ستنتعله عندما تصل الشاطىء.

وقد تعلمت كيف تمشي وهي تصعد الجسر الممتد بين الرصيف والسفينة، كي لا تسقط في الماء. وأدركت أنها ينبغي ألاّ تفارق الراهبات، وألاّ تخرج من حجرتها إلاّ لتناول الطعام، وألاّ تجيب عن أي سؤال يلقيه عليها مجهول من أي الجنسين كان، ومهما كان السبب وطوال الرحلة.

وقد صحبت في جعبتها حُقّاً صغيراً فيه سائل لعلاج دوار البحر، ودفتراً كتب فيه الأب أنخيل، بخط يده، ستة أدعية ضد العاصفة. وخاطت لها فيرناندا حزاماً من قماش سميك تحفظ فيه مالها، وعلمتها الطريقة التي تضعه بها، فلا تنزعه حتى عندما تنام. وأرادت منها أن

تأخذ معها إناء الغرفة الذهبي (الخاص بالتبول) بعد أن غسلته وطهرته وعقمته . ولكن أمارنتا أورسولا خشيت أن تسخر منها رفيقاتها في الكلية.

وبعد أشهر من ذلك التاريخ، تذكر أوريليانو الثاني، وهو على فراش الموت، آخر مرة رآها فيها، وهي تحاول عبثاً أن تنزل النافذة المقابلة لمقعدها، في عربة الدرجة الثانية من القطار، كي تسمع آخر وصية من فيرناندا.

كانت يومها ترتدي ثوباً من الحرير الوردي، وقد ضفرت على كتفها الأيسر باقة زهر صغيرة، من أزهار البانسي (اذكريني) الصناعية، ولبست حذاء من جلد قرطبة واطىء الكعب، وجرابين من الأطلس ينتهيان برباطين مطاطيين ينعقدان فوق ربلتي ساقيها .

كان جسمها رقيقاً، وشعرها طويلاً يتحرك بحرية. وكانت لها عينان كعيني أورسولا الحادتين جداً في مثل عمرها ، وكانت لها طريقتها أيضاً في قول : «وداعاً» دون أن تبكي أو تبتسم، فتبدو للرائي قوة شكيمتها دون قناع.

كان أوريليانو الثاني يمسك بيد فيرناندا، كي لا تسقط على الأرض، ويسير وإياها بجوار القطار، الذي بدأت حركته تتسارع، حتى لم يستطع، إلاّ بعد لأي، أن يجيب بإشارة من يده، على القبلة التي أرسلتها له ابنته على أطراف أصابعها. وبقي وزوجته جامدين بلا حراك، في أشعة الشمس الحارقة، حتى غدا القطار نقطة سوداء في الأفق، وقد تشابك ذراعاهما للمرة الأولى في حياتهما منذ زواجهما.

في اليوم التاسع من شهر آب (أغسطس)، وقبل وصول أول رسالة من بروكسل، جلس خوزيه أركاديو الثاني وأوريليانو الصغير، في غرفة ملكيادس، يتبادلان الحديث في شؤونهما العادية. فقال له دون أن يشعر

بما كان يقول :

ـ تذكر دائماً أنهم كانوا أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم قد ألقوا بهم في قعر البحر.

قال هذا وسقط وجهه على الرق الذي كان بين يديه. فمات وعيناه مفتوحتان.

وفي اللحظة عينها، وفي سرير فيرناندا، انتهى أخوه التوأم (أوريليانو الثاني) إلى نهاية المطاف من كفاح طويل مرير مع مخالب السرطان الفولاذية التي كانت تلتهم حلقه شيئاً فشيئاً. وقد عاد إلى البيت، منذ أسبوع، بلا صوت. وهو مجهد غاية الإجهاد. وقد نحل حتى بدا جلداً وعظماً، وهو يصطحب حقائبه المتنقلة وأكورديون حفلاته. وكان مجيئه لكي يفي بوعد قطعه على نفسه بأن يموت عند زوجته.

أعانته بيترا كوتيس في جمع أشيائه، وودّعته دون أن تذرف دمعة، واحتفظت عندها بحذائه اللماع الذي كان يريد أن يلبسه في نعشه، فلم تسمح له به.

وعندما علمت بموته لبست ثياب الحداد السوداء، ولفّت الحذاء بجريدة، واستسمحت فيرناندا لكي ترى جثته. ولكن فيرناندا لم تسمح لها بأن تعبر عتبة باب الدار، فخاطبتها بيترا كوتيس بتوسل قائلة :

ـ ضعي نفسك في مكاني، وتصوّري كم كنت أحبه حتى أتقبل مثل هذه الإهانة.

ولكن فيرناندا أجابتها قائلة :

ـ ليس في الدنيا إهانة لا تستحقها المحظية. فانتظري موت رجل آخر من عشاقك، كي تضعي في قدميه هذا الحذاء.

ووفاءً من سانتا صوفيا بالعهد الذي قطعته، جزّت رأس خوزيه

أركاديو الثاني عن جثته بسكين المطبخ، لكي تتأكد من أنه لن يدفن حياً.

وضع جسدا الأخوين التوأمين في نعشين متماثلين، حتى تبين للناس أنهما قد عادا إلى شبههما السابق وهما ميتان، تماماً كما كانا في شبابهما.

وحضر رفقاء أوريليانو الثاني في ملذاته ولهوه، كي يضعوا على نعشه إكليلاً من الزهر، ربط عليه شريط أرجواني اللون كتب عليه :

ـ كفى، أيها البقر، فالحياة قصيرة.

وسخطت فيرناندا من قلة أدبهم واحترامهم، فألقت بإكليلهم إلى النفايات.

وفي زحمة اللحظات الأخيرة، اختلط الأمر على السكارى المحزونين، فلم يعد بوسعهم تمييز أحد النعشين من الآخر. فحملوهما من البيت ودفنوا الواحد منهما في قبر أخيه.

(١٨)

ظل اوريليانو الصغير[1] فترة طويلة دون أن يغادر غرفة مليكادس. فحفظ، عن ظهر قلب، كل الأساطير الخيالية الغريبة التي اشتمل عليها ذلك الكتاب القديم المهترىء. وعرف التركيب الخاص بدراسات هيرمان الكسيح، والملاحظات الخاصة بعلم الشيطان، ومفاتيح الحجر الفلسفي، ونبوءات نوستراداموس[2]، والأبحاث الخاصة بالطاعون. فبلغ سن الرشد وهو لا يعرف شيئاً عن عصره، وإن كان عالماً بالثقافة الأساسية لإنسان العصور الوسطى.

كانت سانتا صوفيا، كلما دخلت إلى غرفته، وجدته منغمساً في قراءاته. كانت تقدم له فنجان القهوة المرّة عند الفجر، وتقدم له، قبيل الظهر، طبق الأرز مع شرائح الموز المقلية، وهو الطعام الوحيد الذي كان يعدّ في البيت منذ موت أوريليانو الثاني. وكانت تعنى به تماماً : فتقص له شعره، وتنظفه من الصئبان، وتفصل له ما تجده في الصناديق من ثياب قديمة. وعندما خطّ شارباه شعراً أقرب إلى الزغب، جاءته بموسى وإناء الماء والصابون الذي كان للعقيد أوريليانو بويندايا.

لم يكن أحد من أبناء العقيد أوريليانو بويندايا يشبهه كما يشبهه أوريليانو هذا، حتى ولا أوريليانو خوزيه[3]، وخاصة بوجنتيه البارزتين، وشكل شفتيه الحازم الشديد. وكما كانت أورسولا تظن أن أوريليانو الثاني، وهو يدرس في الغرفة، إنما كان يحدث نفسه، كذلك كانت

(١) ابن ميمي، بنت فيرناندا وخوزيه أركاديو الثاني، من الميكانيكي موريسيو بابيلونيا.

(٢) صاحب النبوءات المشهور.

(٣) ابن العقيد أوريليانو بويندايا من بيلار تيريزا.

سانتا صوفيا تظن بشأن أوريليانو هذا . وقد كان هو في الحقيقة يتحدث مع ملكيادس.

وفي ظهيرة أحد الأيام، وكان يوماً قائظاً، بعيد موت الأخوين التوأمين، رأى أوريليانو، في انعكاس النور على النافذة، ذلك الشيخ الحزين، بقبعته التي تشبه جناح الغراب، وكأنه ذكرى تجسّدت ماثلة في ذاكرته من قبل أن يولد.

كان أوريليانو، آنذاك، قد فرغ من تصنيف الحروف الهجائية الخاصة بالرقاع. وعندما سأله ملكيادس ما إذا كان قد إكتشف اللغة التي كتبت بها، لم يتردد في الجواب، قائلاً :

ـ السنسكريتية.

وأعلمه ملكيادس أن فرص عودته إلى تلك الغرفة باتت محدودة، ولكنه سيمضي، بسلام واطمئنان، إلى مروج الموت النهائي، وقد إرتاح ضميره، لأن الزمن الباقي أمام أوريليانو كان كافياً له لكي يتعلم اللغة السنسكريتية، فيحل رموز الرقاع المخطوطة، قبل انقضاء قرن على كتابتها. وكان ملكيادس نفسه هو الذي أشار عليه بأنه في الزقاق الصغير، الذي يؤدي إلى النهر، وفي المكان الذي كان المتنبئون يتنبؤون فيه عن المستقبل ويفسرون الأحلام، أيام شركة الموز، يوجد عالم كاتالوني يدير مكتبة فيها كتاب «مبادىء السنسكريتية»، وأن العث سوف يأكل الكتاب قبل مضي ست سنوات ما لم يبادر إلى شرائه.

ولأول مرة في حياتها، سمحت سانتا صوفيا لنفسها بالتعبير عن مشاعرها. ولم يكن ذلك سوى الدهشة الغريبة التي أبدتها عندما طلب منها أوريليانو أن تأتيه بالكتاب. وقد وجدته له فعلاً بين كتابي «تحرير القدس» و «أشعار ملتون»، على آخر الطرف الأيمن من الرف الثاني في خزانة الكتب. ولأنها كانت تجهل القراءة والكتابة، حفظت اسم الكتاب

غيباً. وباعت إحدى السمكات الذهبية السبع عشرة الباقية في المشغل، والتي لم يكن يعرف شيئاً عنها أحد غيرها وغير أوريليانو، منذ الليلة التي فتش الجنود فيها البيت وعاثوا فيه فساداً.

تقدّم أوريليانو الصغير في دراسة اللغة السنسكريتية ، بينما أخذت زيارات ملكيادس تقلّ وتتباعد تدريجاً ، وأخذ ينأى عن الذهن شيئاً فشيئاً ، حتى راحت صورته تخبو رويداً رويداً في أوج ضوء النهار الساطع، وفي آخر مرة أحس أوريليانو بوجوده، لم يكن سوى وجود غير مرئيّ، وقد تمتم قائلاً :

ـ لقد مت بالحمّى على رمال سنغافورة.

ويومها زالت مناعة الغرفة ضد الحرارة والغبار، وفي مقاومة الدود والنمل الأحمر، والعث والحشرات. فغزتها حتى كادت تحيل المعرفة والحكمة المبثوثة في الرقاع إلى ما يشبه نشارة الخشب.

لم يعانِ البيت من نقص في الزاد. ففي اليوم الذي تلا موت أوريليانو الثاني، حضر إلى البيت واحد من أصدقائه، الذين حملوا إكليل الزهور فوق نعشه وعليه الكتابة الوقحة. وقد عرض ذلك الصديق على فيرناندا سداد دين كان لزوجها في ذمته. ومنذئذ، وفي كل يوم أربعاء، كان يصل إلى البيت رسول يحمل سلة فيها من الغذاء ما يكفي لأسبوع كامل.

لم يدرِ أحد أن بيترا كوتيس هي التي كانت ترسل تلك المؤن. فقد رأت في تقديم الإحسان، للمرأة التي أهانتها، خير طريقة تردّ بها لها الإهانة. ولكن أحقادها وضغائنها سرعان ما فترت وأخذت تزول بأسرع مما قدّرت هي نفسها. وهكذا، لم تنقطع عن إرسال الزاد إليهم، في البداية، غروراً ومباهاة، ثم رأفة وشفقة من بعد. فقد كانت في بعض الفترات التي تضعف فيها همتها، فلا تتمكن من بيع بطاقات اليانصيب،

أو يعزف الناس عنها، فلا يعيرونها اهتمامهم، تظل جائعة لكي تأكل فيرناندا. وما حنثت بهذا العهد، الذي قطعته وحدها على نفسها، حتى اليوم الذي مرّت فيه جنازة فيرناندا أمام بيتها.

أما سانتا صوفيا فقد وجدت في تناقص عدد سكان البيت شيئاً من الراحة، التي آن لها أن تنعم بها بعد نصف قرن من التعب والعناء. لم يعرف عن تلك المرأة الكتوم الصابرة، قط، مرة أنها شكت أو بكت أو ندبت حظها. وهي التي بذرت في العائلة بذرة ريميديوس الجميلة الملائكية، وزرعت فيها جلال خوزيه أركاديو الثاني الخفيّ الحزين.

أمضت عمرها في عزلة وصمت، وهي تسهر على تربية أطفال تكاد لا تذكر ما إذا كانوا أبناءها أو حفداءها. وقد اهتمت بأوريليانو الصغير وعنيت به حتى لكأنه خرج من بطنها، وهو لا يدري أنها جدة أمه. ولم يكن ممكناً لأي إنسان، من خارج البيت، أن يصدق أن سانتا صوفيا كانت تنام دائماً على حصير من الخيزران، بينما تصول الجرذان حولها وتجول. لم تجرؤ على أن تخبر أحداً أنها استفاقت، ذات ليلة، ترتعد فرقاً، إذ أحست أن عيناً كانت ترمقها في الظلام الدامس. ولم تكن تلك سوى عين أفعى سامة كانت تسعى على بطنها.

لم تكن تجهل أن أورسولا قد قاسمتها سريرها، وقد ذكرت لها هذا المعروف وحدثتها به. ولكن ذلك كان في الأيام التي تكاثرت فيها أعمال الخبز والطبخ. وكانت الحرب، آنذاك، في أوجها. ولم تكن تربية الأطفال لتدع للمرء فرصة لأن يفكر بنفسه وسعادته. ولم يكن ممكناً لأحد أن يكترث لشأن آخر إلا إذا صاح هذا في شرفة البيت بأعلى صوته.

كانت بيترا كوتيس، التي لم ترها سانتا صوفيا قط في حياتها، هي الوحيدة التي كانت تتذكرها. فقد حرصت دائماً على أن يكون لديها

الحذاء المناسب للخروج، وحرصت على أن تكون لديها الثياب اللازمة، حتى في الأوقات العصيبة التي كانت تتعثر فيها عمليات اليانصيب فلا تسير أمورها إلا بمعجزة. وعندما حلت فيرناندا في البيت، كانت كل الأدلة تدفعها للظن بأنها لم تكن سوى خادمة قديمة فيه. حتى بعد أن سمعت، مرات ومرات، وعلمت أنها كانت حماتها وأم زوجها، لم يزدها ذلك إلا استغراباً. فما دخلت تلك الفكرة رأسها إلا لتغادره من جديد. وما كانت سانتا صوفيا لتأبه كثيراً لوضعها وتصور الآخرين لها في المنزلة الدنيا. فقد كانت، على العكس من ذلك، يبدو عليها كأنما هي تسعد بالتنقل والحركة التي لا تهدأ في جوانب البيت ومختلف أنحائه، فلا تعرف الراحة ولا تظهر الشكوى.

كانت تسهر على النظافة، وتهتم بترتيب البيت الكبير، الذي نشأت فيه وترعرعت منذ حداثتها، والذي كان، في عهد شركة الموز، أقرب إلى الثكنة منه إلى البيت.

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد خفّت حماسة سانتا صوفيا فوق الإنسانية، منذ موت أورسولا، وفترت قدرتها العجيبة على العمل. لقد شاخت تلك المرأة الصابرة، وضعفت قواها. وشيئاً فشيئاً، أخذ البيت يعاني معها من أزمة عجز متزايدة. فبدأت الأشنة والطحالب والنباتات الطفيلية تتسلق جدرانه. ثم ما لبثت الأعشاب الضارة أن غطت أرض الدار كلها، وما لبث أن انبثقت من تحت إسمنت الشرفة، فشققته، كما يتشقق الزجاج، وخرجت من بين شقوقه زهيرات صفراء كتلك التي وجدتها أورسولا، قبل قرن من الزمن، في الكأس التي كانت فيها أسنان ملكيادس الاصطناعية.

ولم تكن سانتا صوفيا لتجد الوقت أو الوسيلة التي تمكنها من كبح جماح الطبيعة. فراحت تقضي نهارها في طرد السحالي من غرف

البيت، لتعود هذه إلى الغرف مع حلول الليل. وقد شاهدت، في أحد الأيام، كيف أن النمل الأحمر بدأ يتخلى عن أساسات البيت بعد أن أنهكها قضماً، ويتابع رحلته عبر جنينة الأزهار، ثم ينعطف نحو الشرفة التي كانت تغطيها أزهار البيجونيا المكسوّة بغبار الأتربة، ثم ينطلق من الشرفة إلى داخل البيت.

حاولت أن تقاوم النمل الأحمر بالمكنسة، ثم بمبيد الحشرات، وأخيراً بالكلس الحيّ. ولكنه كان ما يلبث أن يعود إلى المكان نفسه في اليوم التالي. كان دؤوباً في هجومه، مثابراً قوياً عنيداً لا يقهر.

كان كل ذلك يجري، بينما فيرناندا تكتب الرسائل إلى إبنها وإبنتها غير آبهة بهجوم الخراب والدمار.

وتابعت سانتا صوفيا الكفاح وحدها. فكانت تحارب الأعشاب الضارة كي لا تكتسح المطبخ. وتزيل شباك نسيج العناكب. ولكن هذه وتلك ما تلبث أن تولد من جديد. وتكشط الدود عن مواقع تكاثره. ولكنها عندما لاحظت أن غرفة ملكيادس كانت تظل تعج بالغبار وتزدحم بنسيج العنكبوت، على الرغم من أنها كانت تنظفها ثلاث مرات في اليوم، وعندما تبينت، على الرغم من حماستها الشديدة في الحرص على النظافة والترتيب، أن قدرتها وشجاعتها باتت مهددة بالإخفاق والإحباط، أيقنت أنها لا بد مهزومة أمام طابع البؤس الذي أدركه قبلها العقيد أوريليانو بوينديا وذلك الضابط الشاب الذي قام بتفتيش البيت.

عندئذ لبست ثياب الأحد القديمة المهترئة، وحذاء قديماً كان لأورسولا، وجراباً قطنياً قدمته لها أمارانتا أورسولا هدية، ووضعت الغيارين الباقيين لديها في صرة صغيرة، وخاطبت أوريليانو الصغير قائلة:

- إنني أعلن استسلامي. فلا طاقة لعظامي الضعيفة بالعمل اللازم لهذاالبيت.

وسألها أوريليانو عن المكان الذي تنوي الذهاب إليه، فرسمت له بيدها إشارة غامضة تعني أنها لا تعرف إلى أين ترحل. ثم حاولت أن تكون أكثر وضوحاً وتحديداً، بشكل أو بآخر، فذكرت أنها تريد أن تقضي بقية عمرها مع ابنة عم لها كانت تعيش في ريوهاشا. ولكن قولها ذاك لم يكن يبدو صحيحاً، إذ إنها قد فقدت كل اتصال لها بالقرية منذ موت ذويها. فهي منذ ذاك الحين لم تتلقَ رسالة أو خبراً، ولم يسمعها أحد، قط، تتحدث عن واحد من أقربائها.

كانت تستعد للرحيل، وهي كما لاحظ أوريليانو، لا تملك من حطام الدنيا غير بيزو واحد وخمسة وعشرين سنتاً. فأعطاها الأربع عشرة سمكة الذهبية، وراح يرقبها، محدّقاً فيها، وهي تعبر الدار حاملة معها صرتها الصغيرة، تجرّ قدميها، وقد أحنت ظهرها السنون. وراقبها وهي تدخل يدها في فتحة الباب كي ترجع المزلاج وراءها. ولم يعد أحد، بعد ذلك، يعرف عنها شيئاً.

عندما علمت فيرناندا بمغادرة سانتا صوفيا (التقية) للمنزل، راحت تولول وتصرخ، وهي تذرع الدار وغرف البيت، ذاهبة آيبة، لكي تطمئن أنها لم تحمل معها شيئاً. وقد أحرقت أصابعها عندما حاولت إشعال الفرن، للمرة الأولى في حياتها. وتوسلت لأوريليانو أن يعلمها كيف تعدّ القهوة. ومرت الأيام، وشيئاً فشيئاً آلت إليه مسؤولية إعداد الطعام في المطبخ. فكانت فيرناندا، متى استيقظت، وجدت فطورها جاهزاً. وما كانت لتغادر غرفتها إلاّ لتحمل الصحاف والأطباق التي وضعها أوريليانو على النار لتنضج، فتنقلها إلى المائدة، حيث تجلس لتتناول طعامها على سمط غلكتان، بين الشمعدانات، وحيدة، عند طرف الطاولة، وأمامها خمسة عشر مقعداً خالياً.

كانت فيرناندا وأوريليانو (الصغير)[1] يعيشان في عزلة عن العالم. وكان كل

(١) هو حفيدها، ابن ابنتها ميمي من الميكانيكي موريسيو بابيلونيا.

منهما يعيش في عزلة عن الآخر. فهما لا يشتركان في شيء. كلاهما يقوم بعمله في غرفته، بينما تتابع العناكب عملها، هي الأخرى، في نسج بيوتها، التي باتت شباكها تجلل أشجار الورد، وتغطي أخشاب السقف، وتستر سطوح الجدران.

في تلك المرحلة خُيّل لفيرناندا أن الأشباح تسكن البيت. فقد بدا لها أنّ الأشياء، وبخاصة ما كان منها قيد الاستعمال، تتبدل مواقعها. فكانت تمضي معظم وقتها وهي تبحث عن الشيء، كالمقص مثلاً، على الرغم من تأكدها من أنها تركته على السرير. وبعد أن تقلب عالي البيت سافله، تجد المقص على رف المطبخ، وهي التي لا تذكر أنها دخلت المطبخ لأربعة أيام خلت. وقد تفتح درج أدوات المائدة مرة، فتفاجأ بأن لا تجد فيه شوكة واحدة. ثم تجد ستاً منها، فجأة، فوق المذبح، وثلاثاً أخرى فوق المغسلة. وقد كادت هذه الأمور تدفعها إلى اليأس. فإذا جلست لتكتب لابنها وابنتها، ووضعت المحبرة على يمينها، تجدها فجأة على يسارها. وتبحث عن النشّافة في كل مكان، لتجدها من بعد تحت وسادتها. وتختلط الصفحات التي تكتبها لابنها خوزيه أركاديو بالصفحات التي تكتبها لابنتها أمارانتا أورسولا. ولا تستطيع، أحياناً كثيرة، تجنب مشكلة أخرى كبيرة، إذ تضع رسالة خوزيه أركاديو في غلاف أمارانتا ـ أورسولا. وتكرر منها ذلك. ففي أحد الأيام فقدت ريشتها، وإذا بساعي البريد يردها إليها بعد أن وجدها في جعبته، وتنقل من باب إلى باب كي يستدل على صاحب الريشة.

وخيّل إليها، في البداية، أنّ كل ذلك إنما كان بفعل الأطباء المجهولين. وازداد ظنها عندما أضاعت الأجهزة، فبدأت بكتابة رسالة إليهم، ترجوهم فيها أن يدعوها وشأنها بسلام. وتوقفت عن الكتابة لقضاء حاجة لها، فلما عادت إلى الغرفة لم تجد الرسالة، وعلاوة على ذلك

زايلتها الرغبة في الكتابة.

وتوجه ظنها، في وقت من الأوقات، إلى أوريليانو. فراحت تراقبه مراقبة دقيقة. وتعمدت وضع بعض الأشياء في طريقه، علها تفاجئه في اللحظة التي يبدل مكانها. ولكنها سرعان ما اقتنعت بأنه لا يغادر غرفة ملكيادس إلاّ حين يدخل المطبخ أو بيت الخلاء. وبأنه ليس من الصنف الذي يحب المزاح.

وهكذا، تأكد لدى فيرناندا أن ما كان يحدث لها من أمور إنما كان شيئاً من أذى الأرواح والشياطين. فجعلت تعلق كل شيء في المكان الذي يمكن أن تستخدمه فيه. فربطت المقص عند رأس السرير، بالقرب من رأسها بخيط طويل. وربطت الريشة والنشّافة بقائمة الطاولة، وثبّتت المحبرة، بالصمغ، على سطح الطاولة، إلى يمين الموضع الذي كانت تكتب عادة فيه. ولكن ذلك كله لم يحمل حلاً لتلك المشكلات لليلة واحدة. فبعد بضع ساعات من ربط المقص بالخيط، بدا الخيط قصيراً لا يمكنها من القص به. فكأن الأرواح قد قصّرته. وحدث الشيء ذاته لخيط الريشة. بل إن ذراعها نفسها قصرت عن بلوغ المحبرة بعد فترة وجيزة من الكتابة.

لم تعلم أمارانتا أورسولا في بروكسل، ولا خوزيه أركاديو في روما، شيئاً عن تلك المنغصات التافهة. فقد كانت فيرناندا تخبرهما بأنها سعيدة، لسبب بسيط هو أنها قد تحررت من كل المسؤوليات والواجبات، حتى لكأن الحياة قد أعادتها إلى عالم ذويها. ولذلك لم يتأثر ولداها بمشكلات الحياة اليومية تلك، لأن الحياة، في خيالهما، كانت خالية من المشكلات.

كانت رسائلها المستفيضة، التي لا تنتهي، تصرفها عن الإحساس بالزمان، وخاصة بعد رحيل سانتا صوفيا. فقد اعتادت أن تحسب الأيام

والشهور والسنين. وترقبها، انطلاقاً من معالم ثابتة في ذاكرتها. وهي المواعيد المحدّدة لعودة ولديها. وعندما غيّرا موعد عودتهما، المرة تلو الأخرى، أصيبت بالارتباك. واختلطت عليها التواريخ باختلاف المواعيد، وتشابهت عندها الأيام، حتى فقدت الإحساس بمرور الزمن. ولكنها بدلاً من أن ينفد صبرها شعرت بنوع من الغبطة والسعادة في ذلك التأخير.

لم تقلق فيرناندا حين أخبرها ابنها خوزيه أركاديو أنه كان ينتظر الانتهاء من الدراسة العليا في اللاهوت لكي يبدأ بالدراسات الدبلوماسية، على الرغم من أن بضع سنين قد انقضت على الموعد الذي حدده لتأديته القسم الأخير. فقد كانت تدرك أن طريق الدرج اللولبي المؤدي إلى كرسي القديس بطرس كانت طريقاً صعبة ومحفوفة بالعقبات. وقد كانت، من ناحية أخرى، تتحمس لأمور تبدو غير ذات أهمية للآخرين، كأن تعلم، مثلاً، أن ابنها قد شاهد البابا. وقد غمرتها سعادة مماثلة عندما أخبرتها ابنتها ـ أمارانتا أورسولا ـ أن دراستها سوف تستغرق وقتاً أطول عما كان مقدّراً لها، لأن علاماتها الممتازة قد أهلتها للحصول على بعض الامتيازات التي لم يعتبرها أبوها حين أجرى حساباته.

كان قد مضى نيّف وثلاث سنين على الوقت الذي جلبت فيه سانتا صوفيا كتاب القراءة لأوريليانو، عندما نجح هذا الأخير في ترجمة الصحيفة الأولى من الرقاع. ولم تكن النتيجة غير مفيدة، ولكنها لم تتجاوز الخطوة الأولى على طريق طويلة لا يمكن التنبؤ بآخرها. ذلك أن النص، في الإسبانية، كان بلا معنى. فهو مجرد أسطر كتبت بالأرقام والرموز. ولم تكن لدى أوريليانو الوسائل لوضع أدلة تكشف له معانيها وأسرارها. ولكن ما دام ملكيادس قد أعلمه أن مكتبة العالم الكاتالاني الحكيم تحوي جميع الكتب التي يحتاجها للكشف عن معاني المخطوطات

والرقاع، فقد عزم على مفاتحة فيرناندا، علها تسمح له بجلبها.

جلس في الغرفة التي كانت تعاني من زحف خراب عليها لا يمكن قهره، وجعل يفكر في البحث عن أفضل طريقة لتقديم طلبه. ولكنه عندما التقى فيرناندا وهي تنقل الطعام عن النار، وهي الفرصة الوحيدة التي يمكنه أن يحدثها فيها، أُرتج عليه حتى لكأن الكلام توقف في حلقه، فنسي ما كان قد أعده، بعد تعب شديد لهذه الغاية، وضاع صوته.

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي راقب فيها أوريليانو فيرناندا. فراح يصغي لخطواتها في غرفة النوم، ويستمع إليها وهي في طريقها إلى الباب تستقبل وصول الرسائل من ولديها، وتسلم رسائلها، الموجهة لهما، إلى ساعي البريد. وكان ينصت، حتى ساعة متأخرة من الليل، لصوت الريشة الخشن الشديد على الورق، إلى أن يسمع حركة انطفاء الضوء، وتمتمة الصلوات في الظلام. وعندما كان يأوي إلى فراشه لينام، على أمل أن يمنحه الغد الفرصة التي ينتظر. ولطالما منّى النفس بأنها لن ترفض السماح له.

وفي صباح أحد الأيام، قصّ شعره الذي كان يتدلى على كتفيه، وحلق لحيته الشعثاء، ولبس بنطالاً ضيقاً وقميصاً ذا ياقة إضافية، لا يعرف عمن ورثها، وجلس في المطبخ ينتظر أن تأتي فيرناندا لأخذ فطورها. ولكن المرأة التي وصلت إلى المطبخ كانت غير المرأة التي كان يراها كل صباح. كانت امرأة أخرى. لم تكن المرأة التي اعتاد أن يراها رافعة الرأس، متعجرفة الشكل، حجرية الملامح، بل كانت عجوزاً متصابية ذات جمال فوق عادي وغير طبيعي، تسير كتمثال، وقد ارتدت معطف سمور اصفرّ لونه، وجللت رأسها بتاج من ورق مقوّى مذهّب. تشير خطواتها إلى أنها متعبة، كأنما قضت ليلها باكية بصمت وسرّية.

والواقع أن فيرناندا قد دأبت، منذ أن وجدت تلك الحلة الملكية في

حقائب ملابس أوريليانو الثاني، على أن تلبسها بين الحين والآخر، على الرغم من أن العث كان قد أنهكها فأبلاها. ولو أن أحداً رآها أمام المرآة، وقد بدت ملامحها الملكية، لظنها مجنونة. ولم تكن فيرناندا مجنونة فعلاً. فكل ما في الأمر أنها قد حولت تلك العلائم والإمارات الخارجية إلى آلة للذكريات.

في المرة الأولى التي إرتدت فيها تلك الحلة لم تستطع كبح قلبها عن أن ينقبض وعينها عن أن تغرورق بالدموع. ذلك أنها، في تلك اللحظة نفسها، شمت رائحة صباغ الحذاء العسكري الذي كان يلبسه ذلك الرجل الذي جاء إلى أهلها فأخذها كي يجعل منها ملكة. وعندها أشرقت روحها بالحنين إلى أحلامها الضائعة. ولكنها أحست فجأة بأنها عجوز تقترب من نهايتها، وتبتعد، شيئاً فشيئاً، عن أجمل ساعات حياتها، فأسفت وحزنت حتى من أجل الساعات التي شهدت أسوأ الذكريات. واكتشفت أنها كانت بحاجة ماسة إلى نفحات الأوريجان في الشرفة، وإلى أنفاس الورود قبيل الغروب، بل إلى مزاج الغرباء الحيواني الثقيل، أولئك الذين كانوا يفدون إلى الدار.

إن قلبها المفعم بالرماد المكبوت، ذلك القلب الذي قاوم جميع صدمات الحياة الواقعية دون تعب أو كلل، قد إنهار الآن أمام أولى هبّات الحنين. كانت الحاجة للشعور بالحزن قد أصبحت رذيلة بعد أن أنهكتها السنون. ولكن العزلة قد جعلتها إنسانية. ولكنها، على الرغم من ذلك، عندما دخلت المطبخ في ذلك الصباح رأت فتى مراهقاً شاحب الوجه، معروق الهيئة، يقدم لها فنجان القهوة، وفي عينيه تتلألأ صبوة مشدودة، أحست بجرح بليغ لكبريائها.

ولم ترفض فيرناندا السماح له بالذهاب إلى المكتبة وحسب، بل عمدت، عندئذ، إلى حمل مفاتيح الدار في الجيب الذي تخبىء فيه

الأجهزة الرافعة الضاغطة غير المستعملة.

وقد كانت احتياطاتها تلك أمراً لا ضرورة له ولا نفع فيه. فقد كان بوسع أوريليانو، لو شاء، أن يخرج من البيت ويعود دون أن تراه أو تعلم بأمره. ولكنه عزلته الطويلة في سجنه، وجهله بالعالم، وعادة الطاعة التي تأصلت فيه، جميعها قد وأدت في قلبه كل بذور الثورة والتمرد.

انكفأ أوريليانو إلى غرفته، يعيش في عزلته. يقرأ ويعيد قراءة الصحائف والرقاق. وينصت إلى فيرناندا وهي تبكي في غرفتها حتى الهزيع الأخير من الليل. وذات صباح، جاء إلى المطبخ ليوقد الفرن حسب عادته. فوجد الطعام الذي تركه لها البارحة، كما هو، فوق الرماد المنطفىء. وعندما ذهب إلى غرفة نومها، فألفاها مستلقية على السرير، وقد غطت نفسها بمعطف السمور. وقد بدت كأجمل ما تكون، بل أجمل مما كانت في أية لحظة من حياتها، حتى لكأنها استحالت صدفة من عاج.

وبعد أربعة أشهر من ذلك، وعندما وصل إبنها، خوزيه أركاديو، وجد أنها ما زالت على حالها سليمة كأن لم يمسسها شيء، وكأن لم يصبها أي أذى.

كان من المستحيل أن يشبه رجل أمه كما كان خوزيه أركاديو. كان يرتدي حلة من التفتا القاتمة، وقميصاً له ياقة مستديرة قاسية، وشريطاً حريرياً ناعماً اتخذه على شكل ربطة عنق. كان شاحب اللون، متعب الهيئة، له نظرة فزعة، وشفتان ضعيفتان. كان شعره أسود ناعماً مصقولاً، سرّحه بحيث جعل في وسطه خطاً مستقيماً فارغاً، كأنه من شعر تماثيل القديسين المستعار. وكان الظل المتراني على لحيته التي حلقها بعناية واهتمام شديدين، يعكس على وجهه البارافيني ظل وجدانه وضميره. كانت يداه ناحلتين باهتتين، تبدو العروق الخضر ظاهرة فيهما،

وتنتهي كل منهما بأصابع كالطفيليات. وفي السبابة اليسرى من أصابعه خاتم ذهبي فيه حجر كريم ملوّن مستدير.

لم يحتج أوريليانو، عندما فتح له الباب، أن يسأله عمن يكون، فقد كان واضحاً أنه قادم من مكان بعيد. وقد عبق البيت، عند دخوله برائحة العطر الذي كانت تضعه أورسولا على رأسه، في صغره، كي تستدل عليه في ظلال ما كانت تعيش فيه من ظلام. وقد ظل خوزيه أركاديو، بشكل يستعصي على التفسير، ذلك الطفل الخريفي المكتئب الحزين الوحيد.

اتجه، من فوره، إلى غرفة نوم أمه، التي كان أوريليانو قد دأب على تبخيرها بأبخرة الزئبق المغلي، طوال أربعة أشهر، مستخدماً ورق جدّ جدّه، لكي يحفظ الجثة حسب معادلة ملكيادس. ولم يوجه خوزيه أركاديو إلى أوريليانو أي سؤال. بل قبّل جبين أمه الميتة، وسحب من تحت تنورتها الجعبة المخبوءة في البطانة، التي كانت تحوي الثلاثة الأجهزة الرافعة الضاغطة، وهي بعد غير مستعملة، ومفتاح خزانة ثيابها. وقد فعل كل ذلك بدقة وثبات لا يتوافقان مع هيئته المرهقة.

وأخرج من الخزانة صندوقاً صغيراً مجللاً بالحرير الدمشقي، يحمل شارة العائلة. وقد وجد في داخل الصندوق، الذي ضاعت منه رائحة خشب الصندل، الرسالة الطويلة التي أراحت بها فيرناندا قلبها من عناء الحقائق التي كانت تخفيها عنه. قرأ الرسالة وهو واقف، بثقة ووضوح ودقة، ولكن دون نهم ولا قلق. وتوقف عند الصفحة الثالثة. فنظر إلى أوريليانو متفحصاً، كأنه يراه بعين جديدة يعيد بها تعرفه. ثم قال له بصوت حاد قاطع كالموسى:

ـ أنت اللقيط، إذن.

ـ أنا أوريليانو بوينديا.

ـ فقال له خوزيه أركاديو:

ـ اذهب إلى غرفتك.

مضى أوريليانو إلى غرفته، ولم يغادرها مرة أخرى، بل لم يخرجه منها حب الاستطلاع، عندما سمع أصوات احتفالات الجنازة التي لم يحضرها أحد.

كان، أحياناً، يرى، وهو في المطبخ، خوزيه أركاديو يذرع البيت جيئة وذهاباً، متألماً يكاد يختنق من لهاث أنفاسه. وكان يتابع سماع خطواته في غرف النوم المتهدمة، بعد منتصف الليل. وقد مضت شهور طويلة دون أن يسمع له صوتاً، لا لأن خوزيه أركاديو لم يكن يوجه إليه كلاماً وحسب، بل لأنه كذلك لم تكن لديه أية رغبة في الحديث معه، ولم يكن لديه وقت للتفكير في غير رقاقه وصحائفه.

لدى موت فيرناندا، أخرج أوريليانو السمكة الذهبية الصغيرة قبل الأخيرة، وقصد مكتبة العالم الكاتالاني الحكيم كي يشتري ما يحتاج إليه من كتب. ولم يكترث بكل ما صادفه في طريقه، لأن الأشياء لم تشكل لديه معالم، بسبب عدم ارتباطها بذكريات لديه يقارنها بها. ولذلك فقد بدت له البيوت الكئيبة الخاوية، والشوارع المهجورة كما تخيلها في الوقت الذي كان يود أن يبذل روحه في سبيل مشاهدتها ومعرفتها. لقد أجاز لنفسه الخروج من البيت، الذي رفضته له فيرناندا، لمرة واحدة وهدف واحد، وفي أقل ما يمكن من الوقت. فكأنه عبر، بخطوة واحدة، مجموعات البيوت الإحدى عشرة الممتدة في الزقاق، بين البيت والمكتبة، حيث كانت تفسّر الأحلام في الماضي. ودخل، منهكاً مبهور الأنفاس، إلى المكتبة الصغيرة المزدحمة، حتى لا يجد المرء فيها متسعاً للحركة.

لم يكن المكان يدل على مكتبة. فقد كان أقرب إلى مجمع للنفايات، غير أن تلك النفايات كانت كتباً قديمة، مصفوفة كيفما اتفق على

الرفوف، وقد أمعنت الحشرات فيها قضماً، فأتت على أجزاء منها.

كان صاحب المكتبة جالساً إلى طاولة، في الفسحة التي كانت مخصصة للمرور. وقد تكدست على طاولته ذاتها مجلدات ضخمة من الكتب. وكان يكتب أدباً نثرياً مستفيضاً بخط أرجواني، يبدو رائعاً، على أوراق سائبة من دفتر ملاحظات مدرسي.

كان شعر رأسه، الفضي الجميل يغطي جبينه، فيبدو كعرف الببغاء. وتوحي عيناه الزرقاوان الحادتان المبطنتان قليلاً برقة ولطف رجل قرأ تلك الكتب جميعاً. وكان يرتدي سروالاً قصيراً، وينضح عرقاً. ولم يتوقف عن الكتابة ليرى الداخل إلى المكتبة.

وعلى الرغم من تلك الفوضى، لم يجد أوريليانو صعوبة في العثور على الكتب الخمسة التي جاء للبحث عنها. ذلك أن ملكيادس كان قد عيّن له مكانها الدقيق. فوضعها، دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، أمام العالم الكاتالاني، ووضع فوقها السمكة الذهبية الصغيرة. فرمقها العالم الكاتالاني متفحصاً، وقد تقلص جفناه كحيواني البطلينوس(١). وقال بلغته، وهو يهز كتفيه :

ـ لا بدّ أنك مجنون.

ثم ناول أوريليانو الكتب الخمسة والسمكة الذهبية الصغيرة، مضيفاً بالإسبانية :

ـ إنها لك. أظن أن آخر من قرأ هذه الكتب هو إسحاق الأعمى. والأحرى بك أن تفكر جيداً في ما تفعل.

أصلح خوزيه أركاديو غرفة ميمي(٢) ، ونظف الستائر المخملية ورفأها . كما أصلح حرير كلة السرير (السرير الملكي). ورمّم غرفة الاستحمام المهجورة، حيث كان سطح مغطسها مغطّى بطبقة قاسية من الوسخ.

(١) من الحيوانات الرخوية أو السمك الصدفي Clam.

(٢) هي أخته وأم أوريليانو الذي وضعته في الدير.

وجعل هذين المكانين مجال إمبراطوريته الصغيرة، بما حشد فيهما من مستحضرات غربية، وملابس قديمة شبه بالية، وعطور زائفة وجواهر تقليدية رخيصة. ولم يكن يبدو عليه أنه ينزعج من شيء في سائر الدار سوى تماثيل القديسين التي كانت حول المذبح. وهكذا، أحرقها جميعاً، في أصيل يوم من الأيام، بنار أوقدها في فناء الدار.

كان ينام إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، كل يوم، ثم يذهب إلى الحمام. وقد إرتدى سترة صفراء قديمة مطرزة بثنيات مذهبة، وانتعل حذاء خفيفاً (حفّاية أو شحاطة) لها أشرطة صفراء . وهناك يمارس طقوسه الدقيقة التي تذكر، بدقتها وطولها، بريميديوس الجميلة. فكان يعطر الحوض قبل أن يستحم بأملاح يحفظها في ثلاث علب من المرمر. ولم يكن يصب الماء على نفسه بالقرعة الخاصة بذلك، بل كان يغطس في الماء المعطر، ويتمدد فيه حتى الساعة الثانية من بعد الظهر، وقد استسلم للبرودة اللذيذة ولذكرى أمارانتا.

وبعد أيام من وصوله، تخلّى عن بزّة التفتا، بسبب الحرارة التي تجلبها والتي لا تتفق مع حرّ البلدة الشديد. ولم تكن لديه بزة أخرى. فاستبدل بها بنطالاً ضيّقاً شبيهاً بالبناطيل التي كان يلبسها بيترو كريسبي خلال دروس الرقص، وارتدى قميصاً من حرير حيك من خيوط دود القز الطبيعية ، وقد ظهر على صدره الحرفان الأولانْ من اسمه .

كان يغسل ثيابه الداخلية مرتين في الأسبوع، وينتظر بالسترة حتى تجف لأنه لم يكن لديه سواها. ولم يتناول الطعام، قط، في البيت. يخرج عندما يخف قيظ وقت القيلولة، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل. وعندها يبدأ بممارسة السير في الغرفة، ذهاباً وإياباً، وقد علا صوت أنفاسه ، كقط نائم يحلم ، وهو لا ينفك يفكر بأمارانتا(١) . فلم يبقَ في ذاكرته من صور البيت إلا صورتان ؛ صورتها وصورة القديسين

(١) هي عمة جده .

بنظراتهم المخيفة، على ضوء مصباح النوم الخافت. فلطالما فتح عينيه، في حرّ آب (أغسطس) في روما، بينما يراود عينيه حلم يضارع الحقيقة. فكان يرى أمارانتا خارجة من حوض استحمام مرمري متنوع الألوان، وهي في ثياب الدانتيلا الداخلية الشفافة، ويدها مربوطة، وقد صورها له قلق منفاه وأرقه بصورة غاية في المثالية.

لم يتصرف كما تصرف خوزيه أوريليانو، حين حاول أن يخنق صورتها في مستنقع الحرب الدامي. جهد في أن يحفظها حية في ذاكرته، بينما كان يتمرغ في حمأة الرذيلة، ويخدع أمه برسائله التي كان يروي لها فيها كذباً تفاصيل تقدمه في مهنته البابوية. ولم يدر في خلده، ولا في خلد أمارانتا، أن رسائلهما لم تكن من كليهما سوى محض تصور وخيال. فقد ترك خوزيه أركاديو، لدى وصوله إلى روما، المدرسة الرهبانية، ولكنه واظب على الرواية الخرافية المختلقة لدراسته اللاهوت والقانون الكنسي، لعله لا يعرض للخطر سمعته وميراثه الخرافي، الذي طالما حدثته عنه أمه في رسائلها الخيالية. فقد كان يطمح أن ينقذه ذلك من حياة الفاقة والذل التي كان يعيشها مع رفيقين له في غرفة ضيقة حقيرة في حي أتراستيفيري الفقير.

وعندما تسلم آخر رسالة من أمه، فيرناندا، تلك الرسالة التي أملاها عليها إحساسها بأن الموت وشيك لا ريب فيه، لملم في حقيبته بقايا عظمته الكاذبة، وعبر المحيط في قعر سفينة تقل المهاجرين، الذي كانوا يتقوقعون على أنفسهم كحيوانات مقودة إلى مسلخ. ولم يتذوق، خلال تلك الرحلة، سوى المعكرونة الباردة والجبنة المتعفنة الممتلئة بالدود.

وقبل أن يقرأ وصية فيرناندا، ولم تكن سوى رواية تفصيلية متأخرة لدقائق شقائها، ومنذ أن شاهد الأثاث المهترىء المخلّع، والأعشاب الطفيلية الضارة التي نمت في الشرفة وتحتها، أدرك أنه قد وقع في شرك،

ولم يعد له مناص مما إنتهى إليه، بعد أن اختار لنفسه الابتعاد عن حياة الفجر الماسية، وعن هواء روما الربيعيّ الفتان.

كان يعيش أرقاً مضنياً، ويعاني من ربو يكاد يخنق أنفاسه، ويحاول أن يسبر أعماق شقائه، وهو يذرع البيت المظلم، الذي تعلم فيه الخوف من العالم، على صوت اورسولا العجوز الشبيه بصوت عقاب البحر. فقد كانت العجوز تحدد له زاوية في الغرفة، كي تهتدي إلى مكانه في الظلام، فلا يحيد عنها، لأنها الزاوية الوحيدة التي يتجنب فيها الموتى الذين ما ينفكون يجوبون البيت، بعد غروب الشمس. وكانت أورسولا تقول له :

ـ سيلغني القديسون عن كل ما تفعله.

وانقضت أمسيات طفولته المذعورة في تلك الزاوية، وهو قاعد بلا حراك حتى تحين ساعة النوم. وكان في نومه يعيش الخوف ذاته، فيرقد على كرسي صغير، سابحاً في عرقه، مذعوراً تحت وطأة أنظار القديسين الوشاة القاسية الباردة التي ترقبه. ولم يكن لكل هذا التعذيب أية ضرورة، ذلك أن خوزيه أركاديو كان يعيش في رعب داخلي من كل ما حوله، وقد أعدته تربية الرعب تلك للخوف من كل ما كان يصادفه في حياته : من النساء في الطرقات، اللواتي قد يفسدن دمه، والنساء القريبات اللاتي يلدن أطفالاً بأذناب خنازير، وديكة القتال التي تؤدي إلى مقتل الرجال، فتأنيب الضمير ما دام المرء على قيد الحياة، والأسلحة النارية التي ما إن تلمسها حتى تتسبب بعشرين سنة من الحرب، والمغامرات الطائشة التي تؤدي إلى مستقبل مرير، وإلى الجنون، ثم إلى كل ما خلقه الله، بحكمته اللا متناهية، وأفسده الشيطان.

ويستيقظ خوزيه أركاديو من نومه وقد هصرته الكوابيس، فلا يخلصه من الرعب والفزع إلا شعاع الضوء يتسرّب من ثنايا مصراع النافذة،

ومداعبة أمارانتا له في الحمام، واللذة التي يشعر بها حين ترش له المسحوق بين فخذيه بشرابة من حرير.

وكانت أورسولا نفسها تبدو مختلفة وهي تتنقل بين أضواء البستان الباهرة، لأنها لا تتحدث هناك عن الأشياء المخيفة، بل تفرك له أسنانه بمسحوق الفحم لكي تبدو إبتسامته صافية رائعة كابتسامة البابا، وتقص له أظفاره وتصقل له حوافها، كي تبدو ناعمة، فيندهش الحجاج القادمون إلى روما، من جهات العالم الأربع، أمام نقاء يدي البابا وجمالهما، حين يباركهم. كانت تمشط له شعره وتسرحه كالبابا، وتغمسه بالماء المعطر، كي يضوع جسمه وتفوح ثيابه برائحة عطر البابا.

وقد رأى خوزيه أركاديو البابا مرة في ساحة (كاستيل غاندولفو) وهو يلقي خطاباً واحداً بسبع لغات لجمهور من الحجاج، فما استرعى إنتباهه إلا بياض يديه، اللتين كانت كما لو نقعتا في ماء الكلس، ولمعان ثوبه الصيفيّ الباهر، ورائحة عطر الكولونيا الخفي التي تفوح منه.

أمضى خوزيه أركاديو عاماً في البيت. ولكي يؤمن طعامه وشرابه، اضطر لبيع الشمعدانات الفضية، وإناء الغرفة التليد المشهور. وقد تبيّن له، في لحظة الحقيقة، أنه لم يكن في ذلك الإناء من الذهب إلا الطلاء الخفيف على شارة العائلة. وكانت سلواه الوحيدة، خلال العام، أن يجمع أطفال البلد، كي يلعبوا عنده في الدار. وكان يشاهدهم، في وقت القيلولة، وهم يتواثبون في البستان، ويقفزون على الحبال، ويغنون في الشرفة، ويؤدون ألعاب التوازن مستخدمين أثاث قاعة الجلوس. أما هو فكان يتنقل من مجموعة إلى أخرى، يعظهم ويشرح لهم قواعد حسن السلوك. وإهترأ، في تلك الفترة، بنطاله الضيق وثوبه الحريري، فجعل يلبس بزة عادية إشتراها من مخازن العرب. ولكنه حرص على أن يحافظ على وقاره وكرامته المتعبة وعاداته البابوية. وقد سيطر الأطفال

على الدار كلها، تماماً كما فعلت رفيقات ميمي في الماضي. فقد كان يسمع عدوهم وتراكضهم في أرجاء الدار حتى ساعة متأخرة من الليل، يثرثرون ويغنون ويرقصون، حتى غدا البيت أشبه بمدرسة داخلية تسودها الفوضى.

ولم يأبه أوريليانو لهذا الغزو طالما أن الأطفال لم يقتربوا منه أو يزعجوه في صومعته، في غرفة ملكيادس. ولكنه، في صباح أحد الأيام، فوجىء بطفلين يدفعان باب غرفته. وذعر الطفلان من منظر رجل منفر، غزير الشعر طويله، وقد إنكب على الرقاع المكدّسة على الطاولة يحلل رموزها. ولم يجرؤ الطفلان على الدخول، فراحا يدوران حول الغرفة، ويسترقان نظرات عابرة إلى داخلها، ويثرثران دون إنقطاع. ثم ما لبثا أن شرعا يرميان بعض الحيوانات الحية من إحدى الكوى. وفي يوم من الأيام أغلق الأطفال عليه باب غرفته والنافذة من الخارج، فأمضى أوريليانو نصف نهار في خلعهما. وسرّ الأطفال بأنه لا يعاقب على ذنب، فدخل أربعة منهم، ذات صباح، إلى الغرفة، وهو في المطبخ آنذاك. وأوشكوا على إتلاف الرقاع والصحائف، ولكنهم ما إن أمسكوا بتلك الأوراق الصفراء حتى رفعتهم قوة ملائكية خفية عن الأرض، وتركتهم معلقين في الهواء، حتى عاد أوريليانو إلى الغرفة وانتزع أوراق المخطوطات من أيديهم. ومنذ تلك الحادثة لم يعد يجرؤ أحد منهم قط على إزعاجه.

كان هؤلاء الأربعة الأكبر سناً، بين الأطفال، يرتدون البناطيل القصيرة على الرغم من كونهم على عتبة البلوغ، وكانوا يهتمون كثيراً، بل يشغلون أنفسهم، بمظهر خوزيه أركاديو الشخصي. يصلون إلى الدار قبل الآخرين، فيمضون الصبيحة في ترتيب حلاقته وتدليك جسمه بالمناشف الحارة، وتقليم أظفار يديه ورجليه وصقلها، وتعطيره بماء الزهر. وكثيراً

ما كانوا يدخلون معه إلى الحمام، ليغسلوه بالماء والصابون، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، بينما يعوم هو في ماء المغطس سارحاً في تفكيره يحلم بأمارانتا. ثم يجففونه ويرشون جسمه بالمساحيق ويساعدونه في ارتداء ملابسه.

وكان أحد الأولاد، وهو أشقر الشعر أجعده قرنفليّ العينين كالأرنب، قد اعتاد النوم في البيت. وكانت الروابط التي تجمع بينه وبين خوزيه أركاديو متينة جداً إلى درجة أنه كان يرافقه في أزمات الربو التي تصيبه، دون أي كلام، ويرافقه في السير ليلاً متنقلاً في أرجاء البيت. وفي ليلة من الليالي، وبينما كانا يتنقلان، دون كلام، شاهدا في الغرفة التي كانت أورسولا تنام فيها، بريقاً أصفر يشع من خلال الإسمنت الذي استحال لونه إلى لون الكريستال، وكأن شمساً كانت تسطع من تحت الأرض فبدلت أرض الغرفة إلى لون البلور، حتى لم يشعرا بالحاجة إلى إضاءة الغرفة. رفعا البلاطات المكسّرة التي كان يجثم فوقها سرير أورسولا، فشعّ في وجهيهما بريق باهر. لقد اكتشفا المخبأ السرّي الذي أهلك نفسه أوريليانو الثاني سعياً للعثور عليه. ووجدوا في المخبأ أكياس القنب الثلاثة المربوطة بسلك نحاسي، وفيها سبعة آلاف ومئتين وأربع عشرة مثمّنة ذهبية، تتلألأ كأنها جمر متوقد في الظلام.

كان اكتشاف الكنز كثورة بركان. وبدلاً من أن يرحل خوزيه أركاديو إلى روما بهذه الثروة المفاجئة، التي كانت ذروة أحلامه في أيام الشقاء، حوّل البيت إلى جنة مترفة متهورة. فاستبدل بالستائر القديمة ستائر مخملية جديدة، وغيّر كلة السرير (الستارة أو الناموسية)، وبلّط أرض الحمام، وغطى الجدران ببلاط خزفيّ مربع. وملأ خزائن غرفة الطعام بأنواع المربّى المختلفة، ولحم الخنزير، والتوابل المحفوظة بالخل. وأصلح المخزن، وكدّس فيه أصناف الخمور والمقبلات التي يجلبها بنفسه من

محطة سكة الحديد، في صناديق كتب عليها إسمه.

وفي ليلة من الليالي أقام حفلة لأربعة أكبر الأولاد، دامت حتى الهزيع الأخير من الليل. وفي الساعة السادسة صباحاً، خرجوا من الغرفة جميعاً، وهم عراة، فأفرغوامغطس الحمام، وملؤوه بالشمبانيا، وغطسوا فيه جميعاً، وراحوا يعبثون ويلعبون بصنوف الخمر، كسرب من العصافير السابحة في سماء تزينها فقاقيع عطرة، بينما كان خوزيه أركاديو مستلقياً على ظهره على هامش الاحتفالات، يحلم، وعيناه مفتوحتان، بذكريات أمارانتا. وقد ظلت هذه حاله، منكفئاً على ذاته متقوقعاً على نفسه، يجتر مرارة مسراته الغريبة، حتى بعد أن أنهك التعب الأولاد، فعادوا صفاً واحداً إلى غرفة النوم. وهناك انتزعوا الستائر المخملية، ليجففوا أجسادهم بها. وفي حمى الفوضى التي كانوا يعيشون، كسروا مرآة الكريستال إلى أربع قطع، ومزقوا كلة السرير وحطموا طرفيه، قبل أن يتهادوا بعد أن غلبهم الإعياء والنعاس.

وعندما عاد خوزيه أركاديو من الحمام، وجدهم غارقين في نوم عميق، وهم عبارة عن كومة من الأجساد العارية بين حطام غرفة النوم البائسة. فلم يثره منظر التلف والخراب الذي أصاب الغرفة بقدر ما هزه القرف الممزوج بالحزن والرثاء لذاته، حين وجد نفسه في فراغ مذهل. فاندفع إلى حقيبته، التي كان يحتفظ في أسفلها بأسواط، مما يستخدم في تقويم عوج المسيحي، ومسح أو ثوب من الشعر، وأدوات أخرى للتعذيب والتوبة. وتناول من تلك الأدوات ما وقعت عليه يده، ثم إنطلق نحو الأولاد فطردهم من البيت ولاحقهم، وهو يجعر كالمجنون، ويصب عليهم جام ضربه بلا رأفة ولا رحمة، وكأنما هو يطارد قطيعاً من الكلاب.

ثم انكفأ خوزيه أركاديو على نفسه يعاني من أزمة ربو امتدت بضعة

أيام، ولم تزايله إلا بعد أن وسمته بسمة الموتى. وكاد يختنق بعد عذاب ليال ثلاث، حتى اضطر أن يذهب إلى أوريليانو يرجوه أن يذهب فيأتيه بدواء من المساحيق يشمه، من صيدلية قريبة.

ولم يكن على أوريليانو أن يعبر أكثر من صفين من البيوت حتى يصل إلى صيدلية صغيرة، يغطي الغبار نوافذها. وفيها دوارق وزجاجات عليها أوراق كتب عليها باللاتينية. وهناك شاهد فتاة ساحرة الجمال، كأنها حية من النيل، فناولته الدواء الذي كان خوزيه أركاديو قد كتب اسمه على قطعة من الورق.

هذه هي المرة الثانية التي يرى فيها أوريليانو البلدة المهجورة، بأضوائها الخافتة الصفراء. وهي لم تحرك فيه من حب الاستطلاع أكثر مما فعلت المرة الأولى.

وظن خوزيه أركاديو أن أوريليانو قد فرّ، وإذا به يعود لاهثاً مبهور النفس، بسبب سرعته: وهو يجرر رجليه اللتين أضعفتهما العزلة وقلة الحركة.

لم يكن أوريليانو يهتم بالعالم خارج غرفته مطلقاً. فقد خرق خوزيه أركاديو، بعد أيام من تلك الحادثة، الوعد الذي قطعه لأمه، وسمح له بحرية الخروج متى وكيفما شاء. ولكن أوريليانو أجابه قائلاً:

ـ ليس لديّ ما أفعله في الخارج.

ظل أوريليانو حبيس غرفته، مستغرقاً في رقاعه. حتى استطاع، شيئاً فشيئاً، أن يستخلص مضمونها، ولكنه لم يستطع أن يفسره. ثم أخذ خوزيه أركاديو يتردد على غرفته، حاملاً إليه، أحياناً، بعضاً من شرحات لحم الخنزير، وبعضاً من مربى الفاكهة، الذي يخلف في الفم مذاقاً ربيعياً. وقد قدّم له، في مناسبتين، بعض النبيذ اللذيذ.

ولم يأبه خوزيه أركاديو للرقاع التي كان يعتبرها تسلية فلسفية. ولكن

الذي أثار دهشته هو معرفة أوريليانو، المعتزل، بالعالم، وهي معرفة عجيبة لا تقبل التفسير. فقد اكتشف، بعد ذلك، أنه يفهم اللغة الإنجليزية المكتوبة، وأنه، في أثناء تفحصه للرقاع، قد قرأ دائرة المعارف (الأنسيكلوبيديا) بأجزائها الستة، من الغلاف إلى الغلاف، كما لو كانت رواية ممتعة. وقد عزا إلى ذلك السبب في البداية، كون أوريليانو قادراً على الحديث عن روما وكأنه قد عاش فيها سنين طويلة. ولكن سرعان ما تبين أن أوريليانو يعرف أموراً ليس لها وجود في دائرة المعارف، كأسعار الأشياء، مثلاً. وحين سأله خوزيه أركاديو عن الطريقة التي حصل بها على تلك المعلومات، لم يزد على قوله :

ـ كل شيء معروف.

أما أوريليانو، من جهته، فقد دهش للاختلاف الذي تبينه بين خوزيه أركاديو عندما يرى عن كثب، وبينه عندما يرى وهو يجوب غرف البيت ليلاً. فقد كان قادراً على الضحك، وعلى أن يبدي ملاحظات، تعج بالحنين، حول ماضي البيت وذكرياته، وعلى أن يحزن ويتألم للحال البائسة التي كانت عليها غرفة ملكيادس.

وقد مكّن التقارب بين ذينك الوحيدين ، اللذين يجمعهما الدم[١] ، دون أن تجمعهما الصداقة، من إقرارهما على احتمال العزلة السحيقة الغور، التي تفصلهما وتوحّدهما في آن معاً. بعد ذلك، صار خوزيه أركاديو يدعو أوريليانو ليساعده في حل بعض المشكلات البيتية التي كانت تواجهه وتزعجه. وصار بوسع أوريليانو أن يجلس في الشرفة للقراءة، منتظراً وصول الرسائل من أمارانتا أورسولا، التي كانت ما تزال تصل بدقة وانتظام. وصار بوسعه أن يستعمل الحمام الذي أقصاه عنه خوزيه أركاديو لدى وصوله.

في فجر يوم شديد الحرارة، استيقظ الاثنان مذعورين على صوت قرع

(١) خوزيه أركاديو ، هذا ، هو خال أوريليانو الحالي (الصغير) .

مفاجىء وملح على الباب الخارجي. كان في الباب رجل عجوز أسمر اللون غامقه، وله عينان خضراوان واسعتان تمنحان وجهه ضياء فوسفورياً غريباً، وعلى جبهته صليب من رماد. كانت ثيابه أسمالاً رثة، وحذاؤه خلقاً ممزقاً، وعلى كتفه جعبة عتيقة، هي كل ما لديه. يخاله المرء، من منظره، سائلاً (شحاذاً)، ولو أن في هيئته وقاراً يناقض مظهره. كان يكفي أن يتأمله الناظر جيداً، ولو مرة واحدة، في ظلال قاعة الجلوس، حتى يدرك أن قوة خفية هي التي مكنته من البقاء على قيد الحياة والعيش. ولم تكن تلك القوة هي غريزة حب البقاء، بل عادة الخوف.

كان ذلك أوريليانو أمادور، أو أوريليانو العاشق، الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة ، من أبناء العقيد أوريليانو بوينديا السبعة عشر[1] . وهو الذي تاه في الأرض بحثاً عن ملاذ له في حياة الفرار الرهيب الطويل.

أعلن عن هويته، وتوسل إليهما أن يؤوياه في البيت الذي طالما حلم به في حياة النفي والتشرد التي عاشها، وكان ينظر إليه كآخر ملاذ له في الحياة.

ولكنّ خوزيه أركاديو وأوريليانو لم يذكراه. وظنّا أنه لم يكن سوى سائل غليظ، فطرداه إلى خارج البيت. ولكنهما شهدا، عند باب الدار الخارجي، نهاية فاجعة لمأساة كانت قد بدأت قبل أن يبلغ خوزيه أركاديو سن الرشد بزمن طويل. فقد خرج من بين الأشجار، الممتدة على المقابل، شرطيان كانا يلاحقان أوريليانو أمادور طوال سنين، يتتبعان آثاره حيثما حلّ في أرجاء العالم، ككلبي صيد، فأطلقا عليه رصاصتين من مسدسيهما (الموزر) خرقتا جبهته في مركز صليب الرماد تماماً.

كان خوزيه أركاديو، منذ أن طرد الأولاد من البيت، ينتظر ورود أخبار عن سفينة عابرة للمحيط سوف تسافر إلى نابولي قبل عيد الميلاد. وقد تحدث مع أوريليانو في هذا الأمر، وخطط أن يترك له عملاً تجارياً

(١) وهو ابن عم جد خوزيه أركاديو الحالي .

يضمن له العيش، لأنّ سلة الغذاء والمؤونة قد توقف ورودها إلى البيت منذ دفن فيرناندا. ولكن هذا الحلم الأخير نفسه لم يتحقق !!

ففي صباح يوم من أيام شهر أيلول (سبتمبر)، وبعد أن شرب خوزيه أركاديو القهوة مع أوريليانو في المطبخ، مضى لكي يستحم، كما يفعل كل يوم. وقبل أن يفرغ من ذلك، دخل عليه، من بين فجوات القرميد والبلاط، الأولاد الأربعة الذين كان قد طردهم من البيت. فانقضوا عليه قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه، وقفزوا إلى الحوض بكامل ثيابهم. فأمسكوه من شعره، وأخفضوا رأسه تحت الماء، حيث ثبتوه، حتى تلاشت عن سطح الماء فقاقيع الهواء الدالة على تنفسه. وانزلق جسد وريث العرش، شاحباً صامتاً، إلى قعر الحوض ذي الماء المعطر. ثم حملوا أكياس الذهب الثلاثة، التي ما كان يعرف مخبأها غيرهم وغير ضحيتهم.

كانت العملية سريعة ومنظمة ووحشية وأشبه ما تكون بعملية عسكرية. أما أوريليانو، حبيس صومعته في غرفة ملكيادس، فلم يدر بشيء مما حدث. وعندما حلّ وقت ما بعد الظهر، ولما لم يكن قد رأى خوزيه أركاديو في المطبخ، راح يبحث عنه في كل أنحاء البيت. فعثر عليه طافياً على وجه الماء المعطر فوق مرايا الحوض، وقد انتفخ وتورّمت أوصاله، وما يزال يحلم بأمارانتا. وعندها، وحسب، أدرك إلى أية درجة كان قد بدأ يحبه.

(١٩)

عادت أمارانتا أورسولا مع أوائل ملائكة كانون الأول (ديسمبر)، يدفع شراعها نسيم البحر، وهي تجرّ وراءها زوجها بحبل من حرير مربوط حول عنقه. وقد وصلت دون أن يعلم أحد بمجيئها، ودون سابق إنذار، وقد ارتدت ثوباً عاجيّ اللون، وعلقت في عنقها عقداً من لؤلؤ طال حتى كاد يصل إلى ركبتيها، وأحاطت أصابعها بخواتم مرصعة بالحجارة الكريمة من الزمرد والأزرق الشفيف (التوباز)، وقد عقصت شعرها الناعم خلف أذنيها وربطته بشريط من ذيل سنونوة رقيق.

أما الرجل الذي تزوجته قبل ستة أشهر، فكان بلجيكياً (ناطقاً بالفلمنكية)، نحيل القامة رهيف الجسم، ناضجاً راشداً، وله هيئة بحار.

وما كان عليها إلاّ أن تدفع باب غرفة الاستقبال حتى تتحقق من أن طول فترة غيابها، ومقدار الخراب الهائل الذي أصاب الدار، كانا أكثر مما بلغه خيالها. فصاحت والمرح يغالب خوفها :

ـ يا إلهي.. واضح ألاّ وجود للنساء في هذا البيت.

لم تكن الشرفة لتتسع لكل أمتعتها. فقد حملت معها، إضافة إلى حقائب أمها فيرناندا، التي شحنتها معها إلى المدرسة، محفظتين أخريين من النوع الرأسي الطويل، وأربع حقائب كبيرة للملابس، وكيساً للمظلات النسائية، وأربع علب للقبعات، وقفصاً هائل الكبر فيه خمسون من طيور الكناري، ودراجة زوجها الثلاثية العجلات، وقد

فككت إلى قطع صغيرة ووضعت في علبة خاصة تمكنه من حملها كآلة الكمان الكبيرة.

لم تمنح نفسها فرصة يوم واحد للراحة، بعد رحلتها الطويلة تلك. فلبست بعض ثياب الميكانيك القديمة، التي جلبها زوجها معه، واندفعت في محاولة جديدة لترميم البيت وإصلاحه. فبدأت بمكافحة النمل الأحمر، الذي كان قد غزا الشرفة واستقرّ فيها. فقهرته، وأعادت الحياة إلى الورود الحمراء، وأزالت العشب الطفيلي الضار بعد أن استأصلته من جذوره. وغرست نبات السرخس والأوريجان من جديد، وأعادت زرع زهور البيجونيا في الأصص على حواف الشرفة. وقادت فرقة من النجارين والحدادين والسماكرة والبنائين. فرتقوا الفجوات والثغرات في الأرض، وأعادوا تركيب مصاريع الأبواب والنوافذ في مواضعها، وجددوا الأثاث، وبيّضوا الجدران وطلوها من الداخل والخارج.

بعد ثلاثة أشهر من وصول أمارانتا أورسولا، صار بوسع الإنسان أن يشم، مرة أخرى، جو الفتوة والشباب والمرح الذي كان سائداً في تلك الدار أيام البيانو الآلي. ولم تشهد الدار مثلها نشاطاً ومرحاً. فقد كانت، على مدار الساعة، وأنى تحركت في أرجاء الدار، وفي كل مناسبة، تغني وترقص، وهي تزيل من طريقها كل بائد، وتلقي في سلة المهملات كل الأشياء المنتمية إلى غير تلك الحياة. وهكذا استطاعت أن تكنس كل الذكريات الحزينة، والعلائم الجنائزية، وأكداس النفايات العقيمة، والمواد الخرافية، التي كانت مكدّسة في الزوايا. ولم تحتفظ إلا بصورة ريميديوس الجميلة، وفاء لأورسولا، فأبقتها معلقة في قاعة الاستقبال. وكانت تصيح وهي مغرقة في الضحك :

ـ جدة عمرها أربعة عشر عاماً.

وعندما روى لها أحد البنائين أنّ الدار مسكونة بالأشباح، وأن الوسيلة

الوحيدة لطردها هي في البحث عن الكنوز المخبّأة فيها، أجابت، وهي مقهقهة ضاحكة، بأنها لا تؤمن بالخرافات، وأنه لا يليق بالرجال أن يكونوا خرافيين.

كانت عفوية جداً، ومتحررة تتمتع بروح حديثة حرة جداً، حتى إن أوريليانو لم يدر ماذا يفعل بنفسه عندما رآها تصل إلى الدار[1] . أما هي ففتحت ذراعيها له وصاحت، تعبيراً عن فرحها وسعادتها به، وقالت :

ـ يا إلهي . . يا لمحبوبي الهمجيّ آكل لحوم البشر . . أنظر كم كبر وكيف صار.

وقبل أن يصدر عنه أي ردّ فعل، كانت قد وضعت أسطوانة الحاكي (الفونوغراف) النقال، الذي أتت به معها، ثم أخذت تعلمه إحدى أحدث الرقصات. وبعد ذلك أجبرته على تبديل بنطاله الرث، الذي ورثه عن العقيد أوريليانو بوينديا، وأعطته بعض قمصان الشباب المرحة، وحذاء حديثاً ذا لونين. وعندما لاحظت أنه يمضي أكثر مما ينبغي من الوقت في غرفة ملكيادس، جعلت تحثه على الخروج إلى الشارع كي يرى العالم في الخارج.

كانت نشيطة فعالة، وصغيرة، وعنيدة كأورسولا. وتكاد تكون في مثل جمال ريميديوس الجميلة وإغرائها. وقد وهبتها الطبيعة غريزة نادرة جعلتها تكون دائماً أسبق من أزياء الموسم والشهرة. فكانت، عندما تصلها مجلات التفصيل والخياطة الحديثة، تكتشف أنها لا تنفعها كثيراً. فهي تراجعها، وحسب، كي تطمئن إلى أنها لم تخطىء في النموذج الذي إبتكرته وخاطته على آلة الخياطة البدائية العتيقة التي كانت لأمارانتا.

كانت على معرفة بكل مجلات الأزياء، وبالأخبار الفنية، والموسيقى الشعبية، التي تنتشر في أوروبا. وكان يكفيها أن تلقي نظرة عابرة عليها حتى تعرف أن الأمور، في العالم، كانت تجري على ما تخيلتها عليه.

(١) أمارانتا أورسولا هي خالة أوريليانو الحالي (الصغير)، ابن ميمي.

ولم يكن أحد يدرك لماذا وكيف اختارت امرأة مثلها، وفي مثل عقليتها وروحها، العودة إلى بلدة ميتة، يسفحها الغبار، ويسحقها الحر. ولها زوج يملك من المال ما يكفيه أن يعيش عيشة رخية راضية في أي مكان يختاره في العالم. وهو يحبها إلى الدرجة التي جعلته يقبل فيها أن تجره إلى تلك البلدة برسن من حرير.

كانت رغبتها في البقاء في البلدة تتوضح أكثر فأكثر، مع مرور الزمن. فقد بدأت تفكر بمشاريع كبيرة طويلة الأجل. وجعلت تتخذ قرارات من شأنها أن تعد لها حياة هادئة ناعمة لشيخوخة مستقرة في ماكوندو. وكان قفص طيور الكناري خير دليل على أن خطتها لم تكن مرتجلة أو وليدة ما هي فيه. فقد ذكرت رسالة وصلتها من أمها، أخبرتها فيها بموت الطيور، فأخرت رحيلها بضعة أشهر، حتى تجد باخرة تتوقف في الجزر السعيدة. وهناك اختارت خمسة وعشرين زوجاً من أجمل أنواع الكناري، لعلها تعيد الحياة إلى سماء ماكوندو. وقد حاولت محاولات كثيرة لتحقيق تلك الغاية. ولكن هذه كانت أكثر مشروعاتها الكثيرة الفاشلة إخفاقاً.

كانت أمارانتا أورسولا، كلما تكاثرت الطيور عندها، أطلقت منها عدداً معادلاً للمواليد الجدد من الفراخ. ولكنها كانت، ما إن تنطلق بحرية، حتى تبادر إلى مغادرة البلدة. وقد جهدت طويلاً لأن تحببها ببرج الطيور الذي بنته أورسولا، يوم رممت البيت وجددت بناءه، وصنعت لها أعشاشاً من نبات الحلفاء على أشجار اللوز، ورشت لها الذرة البيضاء على سطوح المنازل. وهاجت الطيور الحبيسة في القفص، علّ صداحها يثني الطيور الطليقة عن فرارها. ولكن، عبثاً. فما كانت تحلق في السماء، حتى تدور فيها دورة واحدة، تكفيها لاكتشاف موقعها وتبيّن طريق العودة، ثم تيمم شطر الجزر السعيدة.

وعلى الرغم من مضيّ عام على عودة أمارانتا أورسولا، دون أن تستطيع اتخاذ أصدقاء أو إقامة حفلة واحدة، فقد ظلت تؤمن بأنها قادرة على إنقاذ أهل البلدة من الشقاء الذي أصابهم. ولم يشأ زوجها (غاستون) أن يعارضها، مع أنه أدرك منذ هبوطه من القطار، في حرّ ظهيرة قاتلة، أن ما أملى على زوجته قرارها لم يكن إلاّ حنيناً إلى سراب. كان واثقاً من أن الواقع سوف يقهرها، فلم يكلف نفسه عناء تركيب دراجته. فاهتم بجمع أكبر بيوض العناكب من بيوتها التي كان يزيلها البناؤون، فيفقسها بين أظافيره، ويتأمل العناكب الصغيرة التي تخرج منها بعد ست ساعات طويلة. وعندما لاحظ أن أمارانتا أورسولا لا تتابع إصلاحاتها إلا من أجل ألاّ تقرّ بالهزيمة، قرّر أن يركّب دراجته الجميلة، التي كانت عجلتها الأمامية أكبر بكثير من عجلتها الخلفية. ثم كرّس وقته لإصطياد كل ما كان يصادفه من الحشرات في المنطقة، ليعالجها ثم يرسلها، في أوان حافظة، إلى أستاذه القديم للتاريخ الطبيعي في جامعة ليب، حيث أتم دراسته العليا في علم الحشرات، مع أنه كان طياراً في مهنته.

. كان، عندما يركب دراجته، يرتدي بنطال بهلوان راقص على الحبال، وجرابي عازف القرب، وقبعة بوليس سريّ، كتلك المعروفة في قصص شيرلوك هولمز. أما إذا سار ماشياً فكان يرتدي بزة جوخ طبيعية لا عيب فيها، ويلبس حذاء أبيض، وربطة عنق حريرية، ويضع على رأسه قبعة بحريّ، ويحمل بيده عصا من خيزران.

كانت عيناه الشاحبتان تؤكدان هيئة الملاح فيه، وكان له شاربان كأنما هما من صوف سنجاب. وكان يكبر زوجته بخمسة عشر عاماً، ولكن مزاجه الطفولي، وعزمه الفتيّ على جعلها سعيدة، إضافة إلى مؤهلات العاشق التي يتصف بها ؛ كانت جميعاً تعوّض الفارق في السن. والواقع

أنّ الذين كانوا ينظرون إلى ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين من العمر، المتحفظ في سلوكه وعاداته، بحبل الحرير حول عنقه، وبدراجته الشبيهة بدراجات السيرك، ما كان يخطر لهم، أو أن يتخيلوا، أنه قد وقّع مع زوجته الصغيرة عقداً. وما كان لأحد أن يتخيل أنه كان يغريه، كما يغريها، لقاء المضاجعة في أقل الأمكنة مناسبة لذلك، وكلما أحسا بالدافع إلى ذلك.

فقد ظلا كما كانا في أول لقاء لهما، تشدهما، الواحد إلى الآخر، عاطفة ما تنفك تضرمها، يوماً بعد يوم، أحداث غير منتظرة، فتعمقها وتزيدها أواراً. ولم يكن غاستون بالعاشق العنيف وحسب، ولم يكن ذا حكمة واسعة وخيال رحب وحسب، ولكنه ربما كان، كذلك، الرجل الأول، فى تاريخ النوع الإنساني، الذي قام بعملية هبوط اضطرارية، كاد يلاقي وحبيبته فيها الموت، من أجل هدف واحد، وهو أن يتبادلا الحب في حقل من أزهار البنفسج.

لقد تعارفا قبل ثلاث سنوات من زواجهما. وكان في ذلك اليوم يقوم بطيارته، ذات المستويين، بألاعيب بهلوانية فوق كلية أمارانتا أورسولا، وجرّب، بمناورة جريئة، أن يجانب سارية علم الكلية، فعلق إطار الراية القديم وصفيحة الألومنيوم بذنب الطائرة بفعل بعض الأسلاك الكهربائية.

ومنذ تلك الحادثة، جعل يمرّ بالكلية، في نهاية الأسبوع، كي يخرج مع أمارانتا ـ أورسولا، من سكن الراهبات الداخلي حيث كانت تقيم، وحيث لم تكن الأنظمة متشدّدة، كما كانت فيرناندا تريدها. وكان يصحبها إلى ناديه الريفي. وبدأ الحب بينهما، وهما على إرتفاع ألف وخمس مئة قدم، في جو يوم أحد، فوق الأراضي القفر. وكان حبهما يزداد بازدياد صغرالكائنات على الأرض.

كانت تحدثه عن ماكوندو، أبهى وأهدأ بلدة في العالم، وعن بيت كبيرٍ يعبق برائحة الأوريان، حيث تتمنى أن تقضي شيخوختها مع زوج وفيّ وصبيين. نجيبين تسميهما: رودريو وغوانزالو، لا أوريليانو ولا خوزيه أركاديو، وبنت تسميهايرجينيا، لا ريميديوس. وقد أبدت بذكرياتها تلك حرارة وحنيناً وتعلقاً بالبلدة التي جمّلها الحنين ونزّهتها العاطفة، فأدرك غاستون أنها لن تقبل الزواج منه ما لم يوافق على إعادتها إلى ماكوندو. فوافق على ذلك. كما وافق من بعد على رباط الحرير (الرسن) في عنقه، لأنه اعتقد أن تلك مجرد رغائب يتكفل الزمن بفكّ حدتها والقضاء عليها.

ولكنه بدأت تظهر عليه علائم الضيق، بعد أن أمضى عامين في ماكوندو، وما تزال أمارانتا أورسولا في مثل سعادة اليوم الأول لوصولها. كان خلال تلك الفترة قد اصطاد وشرّح كل ما يمكنه اصطياده وتشريحه من حشرات المنطقة، وتعلم الإسبانية فتحدث بها كأهل البلدة الأصليين، وحلّ كل الكلمات المتقاطعة في المجلات التي كانت تصله بالبريد. ولم يكن بوسعه أن يتذرع بالطقس للإسراع بالرجوع، لأن الطبيعة قد منحته كبداً يتكيف للعيش في المستعمرات، تحتمل دون جهد مقاومة النعاس في وقت القيلولة. كما تحتمل المياه المترعة بالطفيليات. وقد أحب الطبخ الوطني كثيراً، حتى إنه أكل في أحد الأيام، عنقوداً من اثنتين وثمانين بيضة من بيوض الإيكوان في جلسة واحدة.

كان كل ذلك، بينما كانت أمارانتا أورسولا تستقدم، عن طريق القطار، الأسماك والمحار في صناديق مـ جة، وكذلك اللحم المحفوظ وشراب الفواكه، لأنها لا تستطيع أن تأكل سواها. كما واظبت على متابعة لبس الأزياء الأوروبية وتلقي النماذج بالبريد، ولو أنها لم تكن تذهب إلى أي مكان، ولا تزور أحداً. ولكن زوجها، في ذلك الوقت لم

يعد يحتمل أن يعجب بثيابها الخفيفة والقصيرة، أو بقبعاتها المخملية وعقودها ذات السبعة أطواق. كان سرها يكمن في قدرتها دائماً على أن تجد ما تشغل به نفسها. فكانت تحل مشكلات البيت التي توجدها بنفسها، أو تصحح اليوم ما تفسده في الأمس، بحماسة مَرَضيّة تذكر بأمها فيرناندا، أو بآفة موروثة تتصل بتركيب الأشياء لا لشيء إلاّ لفكها من جديد.

وظل حب الحفلات، والبراعة فيها، حيّاً في نفسها. فكانت، كلما وصلتها أسطوانة جديدة، تدعو غاستون للسهر طويلاً، في الصالة، كي تعيد معه خطوات الرقص التي وصفتها لها، بالرسم، رفيقاتها في الكلية. وكانا غالباً ما ينتهيان إلى أن يناما معاً، ويتبادلان الحب، على الأرائك النمساوية الهزّازة، أو على أرض الصالة العارية. ولم ينقصها، لتكتمل سعادتها، سوى ولادة الأطفال. ولكنها كانت تحترم العهد الذي أبرمته مع زوجها، بألا يكون لهما أطفال إلاّ بعد مضيّ خمس سنين على زواجهما.

وسعياً من غاستون للعثور على شيء يزجي ساعات فراغه به، بدأ يعتاد قضاء الصباح في غرفة ملكيادس، مع أوريليانو الحيي الخجول. فقد كان يستمتع، وهو يستعيد معه أقصى الزوايا الخبيثة الجميلة في أرض وطنه، والتي كان أوريليانو يعرف عنها كما لو أنه قد عاش فيها زمناً طويلاً. وسأله غاستون من أين حصل على تلك المعلومات التي لا توجد في دائرة المعارف (الأنسيكلوبيديا)، فأجابه بالجواب نفسه الذي ردّ به على سؤال خوزيه أركاديو:

- كل شيء معروف.

تعلم أوريليانو، علاوة على اللغة السنسكريتية، اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، وبعض اللاتينية والإغريقية. ومنذ أن بدأ يخرج من البيت كل

يوم عصراً، في تلك الفترة، وبدأت أمارانتا أورسولا تخصص له مبلغاً أسبوعياً، لنفقاته الشخصية، تحولت غرفته إلى ما يشبه فرعاً من مكتبة الكاتالوني الحكيم. وكان يقرأ بنهم حتى الهزيع الأخير من الليل. ولكن غاستون أيقن، من خلال الرجوع والاستناد إلى قراءاته، أنه لم يكن يشتري الكتب ليتعلم منها، أو ليزيد من معرفته، بل لكي يتأكد من صحتها وحسب، وأن أياً من الكتب لم يكن يهمه أو يعنيه كما كانت تهمه وتعنيه الرقاع، التي كان يكرس لمطالعتها معظم أوقات الصباح.

أحبّ غاستون وزوجته أن يندمج أوريليانو في حياتهما العائلية، ولكنه كان إنساناً منطوياً على ذاته، تحيط به غيمة من الأسرار والغموض، ما تنفك تتكاثف مع الزمن. كان مزاجه صعب الإدراك. وقد أخفقت جهود غاستون للتقرب منه، فراح يبحث عن سلوى أخرى يزجي بها ساعاته الميتة. وقد عرضت له، في تلك الفترة، فكرة تنظيم بريد جويّ.

لم يكن ذلك المشروع بالأمر الجديد عليه. فالواقع أنه كان قد قطع فيه خطوات ذات شأن قبل أن يتعرف إلى أمارانتا أورسولا. ولكن التصميم الذي كان في ذهنه لم يكن من أجل ماكوندو، بل من أجل الكونغو البلجيكي، حيث تملك عائلته أسهماً واستثمارات في زيت النخيل. وكان الزواج السبب في تأجيله، إذ عزم على أن يقضي بضعة أشهر في ماكوندو، لعله بذلك يسعد زوجته ويدخل السرور إلى قلبها. ولكنه، عندما تبيّن أن زوجته كانت مصممة ومعاندة، وأنها تفكر في تأسيس جمعية للتجديد والتحسين العام، بل أنها ضحكت وسخرت منه عندما ألمح إلى احتمال العودة، عندها أدرك أن الأمر سيطول له. فاستأنف اتصالاته وعلاقاته مع شركائه المنسيين في بروكسل، ظاناً أن كون الإنسان رائداً في الكاريبي لا يقل قيمة عنه في أفريقيا.

وبينما كانت خطواته تتقدم في ذلك الاتجاه، بدأ يعدّ مدرجاً لهبوط

الطائرة، في الإقليم القديم الساحر، الذي كان يبدو في ذلك الوقت سهلاً مكوناً من حجارة الصوّان المسحوقة. ودرس اتجاه الرياح، وجغرافية الساحل، وأفضل الخطوط ملاءمة للملاحة الجوية. ولكنه لم يتنبه إلى أنّ مثابرته الشبيهة بمثابرة السيد هيربرت قد أيقظت في البلدة شكوكاً خطيرة. فقد انتهت الظنون بالناس إلى أنه لم يكن ينوي وضع خطط للطيران، وإنما لزراعة الموز.

وتحمس غاستون لتلك الفكرة التي تبرر له إقامه في ماكوندو. فسافر إلى عاصمة الإقليم عدة مرات قابل فيها المسؤولين، واستحصل منهم على الإذن الخاص بذلك، ووقع اتفاقيات خاصة. وواظب، في الوقت نفسه، على مراسلة شركائه في بروكسل مواظبة تذكر بفيرناندا وتراسلها مع أطبائها المجهولين. وقد تمكن، بإصراره، من إقناعهم بأن يرسلوا طائرة مفككة على أول سفينة قادمة، على أن يرافقها ميكانيكي خبير مجرّب، ليركب قطعها المنفصلة في أقرب مرفأ، ثم يقودها ويأتي بها جوّاً إلى ماكوندو.

ومضى عام على تأملاته، وقياساته وحساباته الجوية النظامية، وقد وثق بوعود مراسليه المتكررة، اكتسب خلاله عادة السير في الشوارع، - وهو يرقب السماء، ويصغي لخفيف النسيم، وينتظر تحقق الأمل بظهور الطائرة.

أحدثت عودة أمارانتا ـ أورسولا تغيراً جذرياً في حياة أوريليانو، على الرغم من أنها لم تتنبه لذلك. فقد بات، بعد موت خوزيه أركاديو، عميلاً مواظباً في مكتبة الكاتالوني الحكيم. وقد أيقظت الحرية، التي نعم بها أخيراً، ووقت الفراغ الطويل الذي كان لديه، بعض الرغبة في معرفة البلدة التي بدأ يكتشفها دون أية مفاجأة. فراح يسير في الشوارع الغبراء المقفرة، وهو يتفحص باهتمام علمي أكثر منه إنسانياً، داخل البيوت

المهدمة، وحديد النوافذ المتآكلة بفعل الأكسدة، والطيور المائتة، والبشر الذين سحقتهم الذكريات. حاول أن يبني، في خياله، أمجاد مدينة شركة الموز المهدمة، وقد صارت أثراً بعد عين، وجفّ مسبحها وامتلأ، إلى حافته، بأحذية الرجال والنساء القديمة المهترئة. ووجد بين أطلال بيوتها الخربة عظام كلب راع ألماني، ما زال مربوطاً بطوقه الفولاذي، وسمع هاتفاً يرنّ. يرنّ. يرنّ. وعندما رفع السماعة سمع، على الطرف الآخر، صوت إمرأة قلقة تسأله، من بعيد، بالإنجليزية. فأجابها :

«نعم، لقد إنتهى الإضراب، وإن ثلاثة آلاف قتيل قد ألقي بهم في البحر، وإن شركة الموز قد رحلت نهائياً عن ماكوندو، بسلام منذ عدة سنين، وإن ماكوندو أخيراً قد نعمت بالسلام بعد سنين طويلة».

وقاده التجوال إلى حيّ الدعارة، وقد انحط إلى الدرك الأسفل. فالحيّ الذي كانت تحرق فيه الرزم المالية لإحياء الحفلات قد غدا متاهة شوارع كل واحد منها أشد كآبة وبؤساً من الآخر. وما زالت بقايا قناديل حمر مضاءة فيه. أما قاعات الحفلات الراقصة فباتت يباباً تزينها بقايا أكاليل الزينة القديمة، تنتظر فيها نساء بدينات سمينات، أرامل أو لم يتزوجن، مهترئات، والجدات الفرنسيات والأمهات البابليات، كلهن ينتظرن قرب أجهزة الحاكي (الفونوغرافات) القديمة.

لم يصادف أورليانو أحداً يذكر عائلته، حتى ولا العقيد أورليانو بوينديا، ما عدا العجزة من الزنوج الهنود الغربيين. وكان بينهم شيخ عجوز كان رأسه الأبيض القطني يجعله يبدو كالنسخة السلبية للصورة (المسودة). وكان هذا ما يزال ينشد عند باب بيته المزامير الحزينة الخاصة بالغروب.

كان أورليانو يتحدث معه بلغته (البابيامنتو) الخاصة التي تعلمها خلال بضعة أسابيع. كما كان يقاسمه، أحياناً، الشورباء المطبوخة

برؤوس الديكة، تعدها له حفيدة ابنته. وكانت هذه امرأة سوداء ضخمة الجثة، قوية البنية، لها ردفان يشبهان مؤخرة الفرس، ونهدان كبطيختين متحركتين، ورأس مستدير كبير، تحيط به خوذة من الشعر الشبيه بالأسلاك، فيبدو كرأس درع المحارب في القرون الوسطى. وكان اسمها نيجرومانتا.

كان أورليانو يعيش في تلك الفترة من بيع الأواني الفضية والشمعدانات وبقية الأدوات التي ما تزال في البيت. وكان إذا أفلس، وتلك كانت حاله في معظم الأوقات، يقصد الحانات المتطرفة المحيطة بالسوق، فيطلب من أصحابها رؤوس الديكة، التي يرمونها عادة مع النفايات. فيحملها إلى نيجرومانتا، فتعد له بها حساء تضيف إليها البقلة وتعطرها بالنعنع. فلما مات والد جدتها، انقطع أورليانو عن زيارة البيت، ولكنه كان يصادف نيجرومانتا تحت شجرات اللوز القائمة المحيطة بالساحة العامة، حيث تجتذب بصفيرها، الذي يشبه صفير حيوان بريّ، بقايا بوم الليل، أي رواد الليل. وكثيراً ما بقي معها، يتحدثان بالبابيامنتو عن حساء رؤوس الديكة وسواها من ملذات البؤس الأخرى. وكان يود لو يرافقها دائماً لولا أنها أفهمته أن صحبته تبعد الزبائن. وعلى الرغم من أن الشهوة أغرته أحياناً كثيرة بأن ينام معها، وعلى الرغم من أنها نفسها ربما تكون قد بدت له نهاية طبيعية لنوع من الحنين والشوق المشترك بينهما، إلا أنه لم يفعل ذلك.

وهكذا كان أورليانو ما يزال بتولاً عذرياً عندما عادت أمارانتا ـ أورسولا إلى ماكوندو، وعانقته عناقاً أخوياً بهر أنفاسه. فكان كلما رآها، وأسوأ من ذلك كلما علمته رقصة حديثة، يحس كأن عظامه إنما تنزلق كقطعة من الإسفنج، تماماً كما أحسّ جدّه الثالث يوم تذرعت بيلار تيرنيزا بورق اللعب وأخذته إلى المخزن. وجهد في أن يغرق في وحدته ويخفف

من عذابه، فانغمس أكثر وأعمق في صحائفه ورقاعه، وحاول أن يتحاشى دعابات خالته البريئة، التي تعكر لياليه وتسبب له الاضطراب بنزواتها الغريبة. ولكنه كان كلما حاول الفرار منها ازدادت حمى انتظاره وترقبه لضحكها الصاخب المجلجل، وصيحاتها التي تشبه صيحات قطة تغمرها السعادة، وأغانيها المعبرة عن نشوتها وامتنانها، ومعاناتها العذبة وتعليقاتها الصاخبة وهي في ذروة تعاطي الحب، في أي ساعة من ساعات النهار، وفي أي مكان من البيت، حتى تلك الأماكن التي لا تخطر على بال.

وفي ليلة من الليالي، وعلى بعد ثلاثين قدماً من سريره، وعلى منضدة مشغل الصياغة الفضية، هاج الزوجان فكسرا المنضدة والخزانة بما فيها من دوارق وسوائل وعقاقير، وانتهى بهما المطاف إلى ممارسة الحب في بركة من أسيد المورياتيك. ولم يغمض لأوريليانو جفن في تلك الليلة، وقضى اليوم التالي محموماً يبكي غيظاً ويتأوه هياجاً. وفي الليلة الأولى التي أنتظر فيها نيجرومانتا، في ظل أشجار اللوز، خيّل إليه أن دهراً قد مرّ قبل أن تصل. بينما كانت إبر القلق الجليدية تمزقه، وهو يشد بيده على البيزو والخمسين سنتاً التي كان قد طلبها من أمارانتا ـ أورسولا، لا لأنه كان بحاجة إليها ، بل من أجل أن يغمسها ، وأن يحط من قدرها ، وأن يعهّرها، بأن يجعل لها دوراً، بطريقة ما، في المغامرة التي يقدم عليها.

جرّته نيجرومانتا إلى غرفتها، حيث أوقدت شعلة من الشمعدان الزائف. ثم قادته إلى سريرها القلاب، الذي اتسخ من تكرار لياليها بتعاطي الجنس القذر، ثم شدّته إلى جسدها ككلبة شرهة، قاسية بلا روح، كأنما هي تنتظر متى تبعده كطفل يرتجف قرفاً. ولكنها فجأة وجدت نفسها أمام رجل خارق القوة يتطلب أن تبذل أحشاؤها حركة

زلزالية كي تستطيع مواكبته والانسجام معه.

وهكذا صارا عشيقين. فكان أوريليانو يمضي الصباح في دراسة الرقاع، ويذهب في ساعة القيلولة إلى غرفة النوم التي تنتظره فيها نيجرومانتا، لكي تعلمه كيف يقوم بالدور أولاً كدود الأرض، ثم كالحلزون، وأخيراً كالسرطان، إلى أن تضطر لتركه، وتستلقي في انتظار تصيّد عشاق الليل.

ومضت أسابيع قبل أن يكتشف أوريليانو أنها كانت تضع حول خصرها طوقاً أو حزاماً رقيقاً يبدو كما لو كان وتراً من كمان. لأنه قاس كالفولاذ. وهو قطعة واحدة لا أثر فيها للوصل أو اللحام. فكأنه قد ولد معها وكبر معها.

كانا دائماً يأكلان بين الضجعة والأخرى، وهما عاريان في السرير، في أتون الحرارة الشديدة، وفوقهما نجوم نهارية تتكون من لمعان الصدأ المحيق بسقف التوتياء.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يكون فيها لنيجرومانتا رجل عاشق ثابت، رفيق بيت، كما كانت تقول هي نفسها، وهي مغرقة في الضحك. بل إنّ قلبها بدأ يغزل أوهاماً حينما صرّح لها أوريليانو بالعاطفة التي تعتلج في حناياه نحو أمارانتا ـ أورسولا، وبأن التعويض معها لم يشفه من عاطفته تلك، بل زاد في تمزيقه من الداخل، وما ينفك ذلك التمزق يزداد بالقدر الذي تتسع فيه آفاق تجربته في العشق.

ومنذئذ بدأت تستقبله بنفس الحرارة والشوق، ولكنها جعلت تأخذ منه أجراً لا هوادة فيه. فإذا جاءها أوريليانو، ولا مال معه، سجلت المبلغ ديناً عليه، بخطوط تحفرها بظفرها على الباب لا بالأرقام، بل بالعلامات والخطوط. وعندما يهبط الظلام، تتخذ لها موقعاً في الساحة العامة، تزاوغ في ظلال الأشجار، بينما يمر بها أوريليانو، فيدخل الدار، ويعبر

الشرفة كالغريب، فيحيي أمارانتا ـ أورسولا وغاستون تحية حيية عابرة، وهما يتناولان عشاءهما، على عادتهما في تلك الساعة، ثم يمضي إلى غرفته ويغلق الباب على نفسه، لا يقدر أن يقرأ أو يكتب ولا أن يفكر، لأنه يجد نفسه في حال من الإضطراب والقرف تسببها له الضحكات والهمسات والمداعبات واللعب، ولعلعة الفرح والمرح، ثم تأوهات النشوة لدى بلوغ النشوة في الحب، مما كان يملأ ليالي الدار.

تلك كانت حياة أوريليانو على مدى سنتين، قبل أن يبدأ غاستون انتظار الطائرة. وكذلك كانت حياته في عصر ذلك اليوم، الذي ذهب فيه إلى مكتبة الكاتالوني الحكيم، فلقي أربعة فتيان رعناء صخابين، يتناقشون بحماسة حول الوسائل التي كانت تستعمل لقتل الصراصير، في القرون الوسطى. كان الكتبيّ العجوز يعرف ميل أوريليانو إلى الكتب التي لم يقرأها غير (بيدي) المحترم. فدعاه بإبتسامة، فيها خبث الكبير المجرّب، للإشتراك في المناقشة. فشرح لهم، دفعة واحدة ودون أن يلتقط أنفاسه، أن الصرصور هو أقدم ما ظهر على الأرض من الحشرات المجنحة، وأنه كان ضحية للضرب بالأحذية الخفيفة، في أيام العهد القديم. ولكنه جنس يقاوم كل المبيدات ؛ من شرائح البندورة التي ترش بالبوراكس، إلى الدقيق الممزوج بالسكر. ذلك أن أنواعه، البالغة ألفاً وست مئة وثلاثة، قاومت أقدم وأقسى ما صنعه الإنسان، منذ وجوده، لاضطهاد الكائنات الحية، ومنها الإنسان نفسه. حتى لنستطيع أن نقول، عندما نصف الإنسان بغريزة التكاثر، بأنه لا بد من إضافة صفة له، أدق وألزم، وهي غريزة قتل الصراصير، التي لم تسلم من وحشية الإنسان وشراسته إلا بلجوئها إلى الظلال. ففي الظلمة إكتسبت العصمة والخلاص من الموت لخوف الإنسان العضوي الوراثي من الظلام. ولكن الصرصور، بالمقابل، ضعيف أمام النور. ولذلك، تبيّن منذ القرون

الوسطى، وهذا ما يزال متبعاً، منذ قرون وقرون، وحتى اليوم. أن الوسيلة الفعالة الوحيدة لقتل الصراصير والتخلص منها هي سطوع أشعة الشمس.

وقد نشأ عن هذه المصادفة المعرفية الأنسيلكوبيدية صداقة عظيمة. فتابع أوريليانو الحرص على الاجتماع، كل عصر، بأولئك الأربعة المناقشين : الفارو، وجيرمان، وألفونسو، وغابرييل. فكان هؤلاء أول وآخر من عرف من الأصدقاء في حياته. كانت تلك الجلسات بالنسبة إليه، وهو سجين الحقيقة المكتوبة، التي تبدأ في المكتبة قرابة الساعة السادسة، قبيل المساء، وتنتهي في حي الدعارة قبيل الفجر، نوعاً من الكشف. فلم يكن يعتقد، من قبل، قط أن الأدب أفضل حيلة اخترعها الإنسان للسخرية من الآخرين. وقد برهن الفارو هذه الحقيقة في ليلة صاخبة. وقد تبين أوريليانو، بعد لأي، أن خير مثل على هذا الأمر المختلف عليه هو الكاتالوني الحكيم. فقد كانت معرفته جهداً ضائعاً. فهي لا نفع فيها ما لم تؤدّ إلى إختراع طريقة جديدة لإعداد الفستق.

في تلك الليلة التي حاضر فيها أوريليانو عن الصراصير، انتهت المناقشة في بيت البنات اللائي يقدمن أجسادهن لقاء الطعام، بسبب الجوع، وهو ما يشبه بيت دعارة في إحدى ضواحي ماكوندو. وكانت صاحبة البيت قوادة دائمة الابتسام، يعذبها هوسها بفتح الأبواب وإغلاقها. وكانت ابتسامتها الأزلية تبدو كأنها وليدة غباء الزبائن، الذين سلموا بوجود بيتها كشيء لا يرقى إليه الشك، مع أن وجوده لم يكن من نسج الخيال. ذلك أن الأشياء المادية الملموسة فيه لم تكن واقعية. فالأثاث يتخلع إذا جلس أحد عليه. ومكبر الصوت مكسور وترقد فيه دجاجة حاضنة، وعلى الأرض أزهار من ورق، والتقويمات (الروزنامات) المعلقة فيه تنتمي لسنين سبقت زمن شركة الموز، والإطارات تحيط بصور مقتطعة

من مجلات لم تعرف الصدور. والبنات المحترفات الصغيرات في السن الخييات اللاتي كنّ يتراكضن من الجوار، عندما تخبرهن صاحبة البيت بقدوم الزبائن، لم يكنّ إلا محض اختلاق.

كنّ يأتين فلا يلقين التحية، وهنّ يرتدين ثياباً قصيرة موردّة فصلت عليهن منذ ما يزيد على خمس سنين، ينتزعنها ويرتدينها بنفس المهارة والخفة والبراءة. وكنّ يصحن في ذروة نشوة الحب: «يا للسماء! انظر كيف يسقط ذلك السقف». وحين يستلمن البيزو والخمسين سنتاً، يبدلن المال برغيف خبز وقطعة جبن، تبيعها لهن صاحبة البيت، وابتساماتها أعرض ما تكون، لأنها الوحيدة التي تعلم أن الزاد لم يكن حقيقياً، تماماً ككل ما في البيت.

أما أورليانو، الذي كان عالمه، حتى ذلك الوقت، يبدأ برقاع ملكيادس وينتهي في غرفة نيجرومانتا، فقد وجد في التردد على بيت الدعارة الخيالي الموهوم الصغير خير علاج لخجله. كان يزعجه في البداية، فلا يصل إلى اللذة، أن يكون في الغرف التي تدخلها المديرة، في ألذ لحظات الحب، فتعلق ما طاب لها التعليق على جمال المتضاجعين وحميتهم وحميميتهم. ولكنه تكيف، مع الزمن، لترهات الحياة الصغيرة. وفي إحدى الليالي الرعناء تعرى من ملابسه في صالة الاستقبال الصغيرة، وعبر البيت من أوله إلى آخره، وهو يرفع على ذكره زجاجة من البيرة متوازنة دون أن تسقط أو تميل. كان هو الذي بدأ هذا النوع من الحركات الغريبة الشاذة، التي كانت المديرة، بابتسامتها الأبدية، لا تعترض عليها ولا تطمئن لها فلا ترحب بها. ومثل ذلك ما حدث في اليوم الذي أراد فيه جيرمان أن يحرق البيت كي يثبت أنه لا وجود له، أو يوم كسر ألفونسو عنق الببغاء ورماه في القدر التي كانت تغلي فيها طبخة دجاج بالخضراوات..

كان أورليانو يحس أنه أقرب إلى غابرييل من الآخرين، ولو أنه كان يرتبط مع الآخرين بنفس الود والصداقة، فلا يفكر فيهم إلاّ وكأنهم شخص واحد. وقد ولدت تلك القربى، ذات ليلة، عندما ذكر أورليانو، اتفاقاً، العقيد أورليانو بويندا. فكان غابرييل الوحيد الذي اعتقد أنه لم يكن يسخر من أحد. حتى المديرة نفسها، وهي التي اعتادت ألاّ تتدخل في أحاديثهم ومناقشاتهم، احتدّت واعترضت بعاطفة المرأة الشديدة، زاعمة أن العقيد أورليانو بويندا، الذي سمعت الناس يتحدثون بأمره مرات كثيرة، لم يكن سوى شخصية اخترعتها الحكومة ذريعة تقتل بسببها الأحرار. أما غابرييل، من ناحية أخرى، فلم يشك قط بحقيقة العقيد أورليانو بويندا، لسبب بسيط هو أنه كان رفيق سلاح وصديقاً لا ينفصل عن جد جده العقيد جيرينيلدو ماركيز.

وكانت تلك المجادلات، ومماحكات الذاكرة تلك، تبلغ أقسى مراحلها عندما يصل الحديث إلى مجزرة العمال. فكانت المديرة، وبعض الأشخاص المسنين، كلما تطرق أورليانو إلى ذلك الموضوع، يرفضون بشدة حكاية العمال الذين حوصروا في المحطة، والقطار ذي المئتي عربة المحمل بالموتى. ويتمسكون بالتالي بما هو وارد في الملفات القضائية والكتب المدرسية: أي أن شركة الموز لم توجد قط. وهكذا اجتمع أورليانو وغابرييل، مشتركين، على وقائع حقيقية لا يؤمن بها أحد سواهما، ولو أنها وسمت حياتهما، فإذا بهما على الهامش، قد تلقفتهما موجة مرتدّة من عالم انتهى، لم يبقَ منه سوى الحنين.

كان غابرييل ينام في المكان الذي ينعس فيه. وقد استضافه أورليانو عدة مرات في مشغل الصياغة، فلم يغمض له جفن طوال الليل، بسبب الموتى الذين يقضون الليل، وهم يروحون ويجيئون، من غرفة إلى أخرى، حتى الفجر. وأخيراً سلمه إلى نيجرومانتا، التي كانت تأخذه

إلى غرفتها، المشغولة كثيراً، حين تفرغ من زبائنها الكثر. وتسجل ديناً على حسابه، خطوطاً عمودية صغيرة وراء الباب، في الأمكنة الخالية من ديون أوريليانو صاحبه العزيز.

كانت تلك الجماعة، على فساد حياتها، تشحذ الهمة لتبدع شيئاً خالداً ترضي به رغبات الكاتالوني الحكيم، الذي ما فتىء يحث على ذلك. وكانت دالته عليهم من تجربته وخبرته. فقد كان أستاذاً للأدب الكلاسيكي في الماضي. ويزيد في دالته ما كان لديه من كتب نادرة. فقد جعلهم يقضون ليلة كاملة في البحث عن الوضع الدرامي السابع والثلاثين، في بلدة لا يتمكن أحد من أهلها من تجاوز مرحلة الدراسة الإبتدائية.

وعندما سُحر أوريليانو باكتشاف الصداقة، وأذهله ما في العالم من سحر، هذا العالم الذي حرمته منه وضاعة فيرناندا، توقف عن دراسة المخطوطات في الرقاع، عندما بدأت تتكشف له عن أنها نبوءات في أبيات شعر كلها أرقام. ولكنه حين اكتشف، من بعد، أن الزمن يتسع لكل شيء، دون أن يتخلى عن بيوت الدعارة، عاودته الشجاعة للعودة إلى غرفة ملكيادس، وقد عزم على ألا تفتر إرادته حتى يكتشف آخر المفاتيح. وكانت تلك هي الفترة التي بدأ فيها غاستون ينتظر وصول الطائرة، والتي وجدت فيها أمارانتا ـ أورسولا نفسها وحيدة. وفي صباح أحد الأيام، دخلت إلى غرفته، وقالت له:

ـ مرحباً، يا آكل لحم البشر. لقد عدت إلى كهفك من جديد!!.

كان جمالها طاغياً لا يقاوم، وهي ترتدي ذلك الثوب الذي صممته، وتضع في عنقها ذلك العقد الطويل الذي صنعته بنفسها من فقرات السمك. فقد توقفت عن إستخدام طوق الحرير، بعد أن وثقت من وفاء

زوجها، وبدأت، للمرة الأولى منذ عودتها، تبيح لنفسها لحظة من الراحة. وبما كان أوريليانو بحاجة لأن يراها كي يعرف أنها قد وصلت.

إتكأت على منضدة العمل بمرفقيها، لا حاجز يحول دونها أو يقيها، حتى كان بوسع أوريليانو أن يسمع صوت عظامها الخفيّ العميق. وأبدت اهتمامها بالصحائف والرقاع.

حاول أوريليانو أن يتغلب على إضطرابه، فاستعاد صوته الذي كان قد فقده، وإسترد حياته التي غادرته، وإستنهض ذاكرته التي تحولت إلى حيوان متحجر. فحدثها عن القدر الرباني للنصوص السنسكريتية، وعن إمكان رؤية المستقبل علمياً، عبر شفافية الزمن، كما يرى الرائي ما هو مكتوب على ظهر ورقة إذا وضعت أمام النور، وعن ضرورة حل رموز النبوءات كي لا تفقد قيمتها أو تزول، وعن «قرون نوستراداموس» المتنبىء المشهور، وعن دمار كانتابريا الذي تنبأ به القديس ميلانوس.

وفجأة، ودون أن ينقطع أوريليانو عن الحديث، وكأنما دفعته قوة خفية غافية فيه منذ خلقه، وضع يده على يدها، ظاناً أنه بقراره النهائي ذاك يضع حداً لهمومه وشكوكه. وعندها أمسكت أمارانتا أورسولا بسبّابته بأسلوب الدعابة البريئة الذي كانت تمارسه معه أيام الطفولة. فقد كانت تلك عادتها. وظلت ممسكة بسبابته وهو يجيب عن أسئلتها. واستمرا هكذا، توجد بينهما سبابتان جليديتان، لا تنقلان شيئاً في أي من الاتجاهين، إلى أن استفاقت من حكمها الآنيّ، وضربت جبينها بأطراف أصابع يدها، وصاحت قائلة:

ـ النمل.

وعندها نسيت كل شيء عن الصحائف والمخطوطات، وخرجت من الباب بخطى راقصة، وطيّرت لأوريليانو، من موقعها، ومن على رؤوس

أصابعها، قبلة، هي نفسها التي طيّرتها لأبيها عصر ذلك اليوم الذي سافرت فيه إلى بروكسل. وانصرفت وهي تقول له :

ـ يمكنك أن تخبرني فيما بعد. فلقد نسيت أن اليوم هو موعد صبّ الكلس الحيّ في بيوت النمل.

دأبت أمارانتا ـ أورسولا على دخول الغرفة بين الحين والآخر، في الأوقات التي تعمل فيها حولها أو قريباً منها، فتبقى بضع دقائق سريعة، بينما كان زوجها يتابع سبر أرجاء السماء. وشجع هذا التغير أورليانو، فجعل يتناول طعامه في البيت، وهو أمر توقف عنه منذ الشهور الأولى لعودة أمارانتا ـ أورسولا. وسُر غاستون بذلك التبدل. فكأنه، في الأحاديث التي تلي تناول الطعام، والتي كانت تستمر أحياناً حتى تتجاوز الساعة، يشكو شركاءه الذين يخدعونه. فقد أخبروه أنهم قد شحنوا الطيّارة في الباخرة، ولكن الباخرة لم تصل قط. وفي الوقت نفسه، كان مراسلوه البحريون يؤكدون له أن الباخرة لن تصل، لسبب بسيط، وهو أنها ليست في قائمة البواخر القادمة إلى الكاريبي. ويصرّ شركاؤه على زعمهم بأن عملية الشحن قد تمت بدقة، حتى وصل بهم الأمر أن ألمحوا، بشكل غير مباشر، إلى أن غاستون قد يكون كاذباً في رسائله. وانتهى المطاف بالمراسلة إلى نوع من الشك المتبادل، فإنقطع عنها غاستون، وجعل يفكر في إحتمال القيام برحلة سريعة إلى بروكسل، كي يفهم الوضع ويصححه، ثم يعود بالطائرة.

وسقط المشروع منذ اللحظة التي كرّرت فيها أمارانتا ـ أورسولا قرارها الحازم في ألا تغادر ماكوندو حتى ولو بقيت بلا زوج.

خلال الأيام الأولى بدأ أورليانو يميل إلى مشاطرة الرأي العام وجهة نظره في أن غاستون كان مجنوناً على درّاجة، فأحس بشعور غامض من الشفقة عليه. ولكنه، حين جمع، في بيت الدعارة، مزيداً من المعلومات

عن طبيعة البشر، أدرك أن حلم غاستون قد تكون له أصول تعزى إلى مطامحه المفرطة. فلما عرفه معرفة أفضل، وجد أن طبعه الحقيقي يختلف عن سلوكه الاستسلامي الخانع. وارتاب بأمره، حتى ذهب به الظن إلى أن انتظاره الطائرة لم يكن سوى فصل تمثيلي. وقال في نفسه إن غاستون ليس غبياً إلى الحدّ الذي يبدو على هيئته. فهو، على العكس من ذلك، رجل دؤوب مثابر ماهر، لا حدود لطاقته وصبره، فهو قد قرّر إحراز النصر على زوجته بأن يتعبها بلطفه الدائم، وبألا يقول لها «لا» أبداً. وهكذا عزم على أن يمثل الرضا غير المحدود، فيدعها تتقلب في بيت العنكبوت الذي يحيط بها، إلى اليوم الذي تسأم فيه من أوهامها، وتمل رتابة الحياة، فتحزم حقائبها بنفسها للعودة إلى أوروبا. فتحولت شفقة أورليانو السابقة عليه إلى نوع من العداء الخفي العنيف. فقد بدا له أن طريقة غاستون مؤذية ومؤثرة، فتجرأ وأنذر أمارانتا ـ أورسولا. ولكنها هزئت بشكه المرضيّ، وشحنة الحب المتفجرة، وعلائم القلق والغيرة التي ينضح بها حديثه. ولم يخطر لها قط أنها يمكن أن تثير في أورليانو غير العاطفة الأخوية.

وظلت الحال على هذا المنوال حتى اليوم الذي جرحت فيه يدها، وهي تفتح علبة دراق. فاندفع إليها كالسهم، وانكب على يدها المجروحة يمص دمها بنهم وتضحية وإيمان، حتى اقشعرّ جسدها. فصاحت به ضاحكة مضطربة :

ـ أورليانو. حاذر. فأنت تكاد تكون مصاص دماء كالخفاش.

فاضطرب أورليانو، وشعر بالخذلان. ثم أخذ يطبع في راحة كفها الجريح قبلاً صغيرة ملتهبة، حتى كشف عن أعمق خفايا قلبه الدفينة، وأخرج كل ما في أمعائه المتفسّخة، والحيوان الطفيليّ الرهيب الذي ترعرع في عذاباته.

روى لها كيف كان يستيقظ في منتصف الليالي، فيبكي غيظاً وحنقاً وحرماناً فوق البياضات الداخلية التي كانت تتركها لتجف في الحمام. وقصّ عليها كيف كان يطلب من نيجرومانتا، بلهفة وقلق، أن تموء كالقطة، وأن تجهش وتتأوه وهي تردد: غاستون. . غاستون في أذنه، وكيف كان يحتال حتى يسرق، من زجاجات عطورها، بعضاً من روائحها المفضلة، لعله يشم منها أثراً على أعناق الفتيات الصغيرات اللواتي كنّ يهبنه أجسادهن لكي لا يقضين جوعاً.

ذعرت أمارانتا ـ أورسولا من شطط تلك العاطفة المتفجرة، فأطبقت أصابعها، وضغطتها على راحتها فبدت يدها كحيوان صدفيّ، حتى كأن يدها الجريح برئت من الألم ومن كل آثار الشفقة، وتحوّلت إلى عقد من الزمرّد والشفيف من الحجارة الكريمة، وعظيمات حجرية لا حسّ فيها. وصاحت به، وكأنها تبصق في وجهه:

ـ غبيّ!. سوف أبحر في أول باخرة إلى بلجيكا.

في أصيل يوم من أيام تلك الفترة، جاء الفارو إلى مكتبة الكاتالوني الحكيم، وهو يعلن، بأعلى صوته، عن أحدث مكتشفاته: بيت للدعارة على هيئة حديقة للحيوان. وكان ذلك المكان يدعى «الطفل الذهبي». وهو عبارة عن قاعة كبرى مشرعة للرياح، يتنزه فيها ما لا يقل عن مئتي طائر من طيور الواق(١)، تسرح على هواها. وكانت هذه الطيور تدل على الوقت بأن تقوقىء مرة كل ساعة تماماً، بصوت قويّ يضطر الناس معه لوضع أصابعهم في آذانهم. ويستطيع المشاهد أن يرى، في الأقفاص، المسيّجة بأسلاك حديدية، المحيطة بحلبة الرقص، بين أشجار الكاميليا الأمازونية، طيور مالك الحزين الملونة، وتماسيح سمينة

(١) طائر من فصيلة مالك الحزين.

كالخنازير، وأفاعي ذات اثني عشر جرساً، وسلحفاة لها هيكل صدفي مذهّب تغوص في بحيرة صناعية. وكان يوجد في المكان كلب أبيض كبير، يستخدم لتحسين نوع الكلاب مقابل ما يقدم له من طعام.

كان جوّ المكان يعبق بكثافة بريئة جديدة، كأنما الصانع قد انتهى لتوّه من صنعه. وكانت البنات الخلاسيات الجميلات ينتظرن، بيأس وقنوط، بين تيجان الورود الدامية، بينما تصدح أسطوانات الحاكيات القديمة، وتقدم طقوساً وطرائف للحب عرفها الإنسان وتخلى عنها في جنته الأرضية.

في الليلة الأولى التي زارت الجماعة فيها مشتل الأوهام ذاك، شعرت المديرة العجوز العظيمة الصامتة، وهي جالسة على مقعد الخيزران الهزّاز، أن التاريخ يعيد نفسه، وأن الزمن عاد إلى أصوله الأولية. حدث ذلك عندما شاهدت بين القادمين الخمسة رجلاً ناتىء العظام، جنزاريّ اللون، له وجنتان تتريتان، وقد وسم بشكل أزلي وسرمديّ بداء العزلة. فتأوهت وتمتمت قائلة:

ـ يا إلهي، يا إلهي، أوريليانو!!

كانت ترى فيه العقيد أوريليانو بوينديا، تماماً كما رأته على ضوء القنديل قبل الحروب بزمن طويل، قبل عزلة المجد ونفي انقشاع الأوهام. في ذلك الفجر البعيد، الذي جاء فيه إلى غرفتها ليصدر أول أمر له في حياته: الأمر بأن تضاجعه. .

كانت تلك هي بيلار تيريزا. فمنذ سنين مضت، وعندما بلغت سن المئة وخمسة وأربعين عاماً، توقفت عن عادة حساب عمرها السيئة. وتابعت عيشها في زمن راكد هادىء على هامش ذكرياتها، في مستقبل واضح مرئي مطلق الكشف، وأبعد من كل مستقبل يمكن أن تؤرقه أحابيل ورق اللعب وفرضياته الوهمية.

منذ تلك الليلة، لاذ أوريليانو (الصغير) برقّة جدّة جدّه المجهولة ولطفها وتفهمها وإدراكها الشفيق. كانت تجلس في مقعدها الخيزرانيّ الهزاز، وتستعيد ذكريات الماضي، وتعرض في خيالها عظمة العائلة وعزها ثم شقاءها، وأمجاد ماكوندو التي باتت يبابا.

وبينما كان الفارو يخيف التماسيح ويجفلها بقعقعة ضحكه الراعد، ويخترع ألفونسو حكايات مرعبة عن طيور الواق التي فقأت بمناقيرها عيون أربعة من الزبائن الذين لم يعرفوا كيف يحسنون التصرف والتعامل معها في الأسبوع الماضي، ويخلو غابرييل بفتاة خلاسية كثيرة الشرود والتأمل، في غرفتها، فلم تكن تطلب لقاء خدماتها مالاً، بل رسائل إلى صديقها المهرّب الذي كان سجيناً على الضفة الأخرى من نهر (أورينوكو)، لأن حراس الحدود سقوه مسهّلاً وأجلسوه على إناء التبرّز فملأه برازاً وماساً، كان بيت الدعارة الصحيح هذا، بصاحبته الحنون، هو العالم الذي كان أوريليانو يحلم به خلال أسره الطويل. فقد شعر فيه أنه بلغ غاية الانسجام، والصحبة الكاملة، حتى لم يعد يفكر في ملجأ آخر يأوي إليه، في عصر يومه، بعد أن أحالت أمارانتا أورسولا أوهامه أثراً بعد عين. فكان يلوذ بذلك المكان يخفف عن نفسه بالكلام، لعلّ أحداً يستطيع أن يريحه من العقد التي تضغط على صدره. ولكن ذلك لم يحدث؛ فلم يتحرر أوريليانو إلاّ بعد أن ذرف دموعاً حارة مريحة في حضن بيلار تيريزا. فقد تركته يبكي ويتأوه، بينما هي تمسّد كتفيه وتربت على رأسه برؤوس أصابعها. وقد عرفت منه، دون أن يفصح لها، أنه إنما كان يبكي الحب. فقد كانت تعرف بسرعة، من خبرتها، أقدم الدموع والتأوهات في تاريخ الإنسان. فقالت له تواسيه وتخفف عنه:

ـ حسناً، يا صغيري. والآن أخبرني من هي تلك التي تبكيها؟

عندما اعترف أوريليانو (الصغير) لبيلار تيريزا، وأخبرها بسره، ضحكت

ضحكة عميقة مدوّية، من ذلك الضحك القديم العريض الذي بات شبيهاً بسجع اليمام. فلم يحدث أن كان في قلب واحد من آل بوينديا سرّ إلاّ واستطاعت أن تنفذ إليه. فقد علمها قرن من الخبرة، بورق اللعب والتجربة، أنّ تاريخ تلك العائلة كآلة على عجلة لا يمكنها تجنب الدوران والتكرار. فهي عجلة يمكن لها أن تستمر في الدوران إلى ما لا نهاية، لولا التآكل المتزايد، والذي لا يمكن علاجه، في محور العجلة. ابتسمت وقالت له:

ـ لا تقلق.. فهي في انتظارك الآن حيثما كانت.

كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، عندما خرجت أمارانتا ـ أورسولا من الحمام. وشاهدها أوريليانو تمرّ بباب غرفته، وهي تضع على جسدها مئزراً شفافاً ناعماً رقيق الطيات، وقد لفت منشفة حول رأسها فبدت كأنها عمامة. فتبعها بخفة، يكاد يسير على رؤوس أصابعه متعثراً بسكره. ودخل إلى غرفتها الزوجية في اللحظة التي كانت تفك المئزر عن جسمها، فأعادت لفّه على نفسها وهي خائفة. فأشار إشارة صامتة باتجاه الغرفة الملاصقة، حيث كان الباب نصف مفتوح، وحيث كان أوريليانو يعلم أن غاستون جالس هناك، وقد بدأ يكتب رسالة. فقالت له بلا صوت تقريباً:

ـ اخرج من هنا.

ابتسم أوريليانو، وتناولها، من خصرها، وهصرها بيديه كلتيهما، ثم رفعها كأنها آنية زهر البيجونيا. وألقى بها، على ظهرها، فوق السرير. وجرّدها من مئزرها بعنف وحشيّ، قبل أن يتسنى لها دفعه أو ردّه أو حتى مقاومته. ثم أطبق بجسده عليها، فوق هوّة عريها التي اغتسلت لتوها، ذلك الجسد العاري الذي لم يكن فيه شيء، من نتن أو عيب، يشوب الكمال، ذلك الجسد العاري الذي لم تكن فيه بقية زغب ولا حال

جمال خفيّ إلاّ تخيلها، من قبل، في ظلام الغرف الأخرى.

ودافعت أمارانتا ـ أورسولا عن نفسها بصدق ما أطاقت، واستعملت كل وسائل المرأة الحكيمة وحيلها. فانزلقت بجسدها الرشيق اللدن المعطر، كجسد صبية عروس، وهي تحاول أن تقطم كليتيه بركبتيها، كما حاولت أن تمزق وجهه بأظفارها. ولكنّ أحداً منهما لم يدع نبأة أو نهدة تخرج منه، فلم يصدر عنهما ما يتجاوز تنفس من يتأمل الفضاء من نافذة مفتوحة، في مساء يوم فاتر من شهر نيسان (أبريل).

لقد كانت معركة شرسة، بل كانت معركة حتى الموت. ولكنها كانت تبدو خالية من العنف، لأنها لم تعدُ الهجمات المتفرقة والاجتياح الشجيّ، والتقهقر المتباطىء المهلهل المراوغ، الذي بدأت تظهر عليه ظلال الجمال الحزين. وكان يتخلل تلك الهجمات والتراجعات من الوقت ما يكفي لشجيرات البيتونيا كي تتبرعم، وما يكفي لغاستون كي ينسى أحلام طيرانه في الغرفة المجاورة. وكأن الأمر لا يتعدى حبيبين متخاصمين يحاولان أن يتصالحا في قعر حوض ماء شفاف، في ذروة تلك الحرب الضارية الحافلة بما يشبه الطقوس.

وأدركت أمارانتا أورسولا ألاّ نفع لاستمرارها في الصمت، لأنه يمكن أن يوقظ شكوك زوجها القريب، أكثر مما توقظه أصوات المعركة التي كانا يحاولان كتمها وعندها جعلت تضحك، وشفتاها مطبقتان، ولكن دون أن تتوقف عن الكفاح والمقاومة. فأخذت تدافع عن نفسها بعضات خلبية كاذبة. ثم بدأت تحلحل جسدها قليلاً قليلاً، حتى بدأ كلاهما يشعران أنهما متعاديان ومتوافقان في أن معاً، وانجلى الأمر عن جولة حب ومجون عريق، وتحولت الهجمات الشرسة إلى مداعبات عابثة.

وفجأة، وبحركة لعوب، وبادرة شيطنة أخرى، تخلّت أمارانتا ـ

أورسولا عن المقاومة والدفاع عن نفسها. ولما حاولت العودة إلى المقاومة، بعد أن فرغت مما جعلته بنفسها ممكناً، كان ذلك منها متأخراً. فرأت أن لا مناص. فقد استقبلت دفعة قوية، أشبه بصدمة هائلة، في مركز ثقلها، فزرعتها في مطرحها، فتلاشت تماماً كل إرادة الدفاع فيها، أمام الرغبة الجامحة القاهرة في أن تستشف الصغير البرتقالي، والكرات الخفية المنتظرة على ضفة الموت الأخرى، وكاد ألا يتسع لها الوقت، لولا قليل، لتبحث بأصابعها الوانية المتباطئة عن منشفة تضعها بين أسنانها لتكبح عنان البوح بأنّات وآهات وصرخات، شبيهة بمواء قطة صغيرة. فكان قد بدأ يمزق أحشاءها في داخلها.

(٢٠)

ماتت بيلار تيريزا في مقعدها الخيزراني الهزاز، في ليلة من ليالي الاحتفالات، بينما كانت تشرف بنظرها على مدخل فردوسها الجديد. وبناء على رغبتها الأخيرة، في وصيتها، لم توضع في نعش، بل في مقعدها الهزاز، الذي أنزله بالحبال ثمانية من الرجال، إلى حفرة عميقة هائلة في وسط حلبة الرقص. وأصيبت البنات الخلاسيات بالكآبة والشحوب، واصفرّت وجوههن لطول ما بكين حزناً عليها. وقد لبسن الثياب السوداء حداداً، ورحن يتكرن طقوساً ظلالية غامضة، فينتزعن الأقراط من آذانهن، والدبابيس من شعورهن، والخواتم من أصابعهن، ويلقين بها في قبر بيلار تيريزا قبل أن يهال فيه التراب، ويسدّ إلى الأبد، وينصب فوقه حجر شاهد بلا إسم ولا تاريخ، ثم يغطى كل شيء بكومة من زهور الكاميليا الأمازونية.

وبعد أن سمّمن الحيوانات، أغلقن الأبواب والنوافذ ببلاط القرميد والطين، وتفرّقن في أنحاء الدنيا، يحملن معهن صناديق أمتعتهن الخشبية المزدانة بصور القديسين، والرسوم المقتطعة من المجلات، وصور بعض الأحبة في فترات عابرة من الزمان، نائية تراود الخيال، أولئك الأحبة الذين كان بعضهم يتبرز ماساً، وبعضهم الآخر يأكل أكلة لحم البشر، أو يتوج ملكاً في ورق اللعب في أعالي البحار.

تلك كانت النهاية. ففي قبر بيلار تيريزا، بين المزامير وجواهر العهر والدعارة الرخيصة، تتعفّن آثار الماضي، وهي البقية الباقية بعد أن أغلق الكاتالوني الحكيم مكتبته ورحل إلى قرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، حيث عرفت عيناه النور، وقد غلبته اللهفة وشدّه الحنين إلى الربيع الدائم. ولم يكن أحد يتوقع منه ذلك القرار. فقد جاء إلى ماكوندو في أوج عزها، أيام شركة الموز، فاراً من إحدى الحروب المتلاحقة الكثيرة. وقد ظن، يومها، أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو فتح تلك المكتبة، التي كانت تحتوي على كتب تعود إلى عهد بداية الطباعة، ونسخ من مؤلفات نادرة ومصادر أصلية بلغات مختلفة. فكان الروّاد العابرون من الزبائن الطارئين يتصفحون تلك الكتب بشيء من الريبة، وكأنها نفايات الكتب. بينما كانوا يصطفون أرتالاً، أمام البيت المقابل، في انتظار أدوارهم لتفسير أحلامهم. وقضى الرجل نصف حياته، جالساً في مؤخرة مخزنه (المكتبة) يسوّد بخط يده الأنيق، بحبر أرجوانيّ، على أوراق كان ينتزعها من دفاتر الملاحظات المدرسية. ولم يستطع أحد أن يتبين يقيناً ما الذي كان ذلك الرجل يكتبه.

وعندما التقى به أوريليانو، للمرة الأولى، كان قد ملأ صندوقين من تلك الأوراق التي كانت تزخر بصحائف ملكيادس ورقاعه. ومنذ تلك الفترة حتى رحيله ملأ صندوقاً ثالثاً، مما يدل يقيناً على أنه لم يفعل سوى ذلك خلال إقامته في ماكوندو. ولم ينشىء أية علاقة مع أحد، باستثناء أولئك الأصدقاء الأربعة الذين كان يستعمل معهم أسلوب المقايضة، فيستبدل بالكتب خذاريفهم[1] وطياراتهم الورقية. فجعلهم يقرؤون (سينكا) و(أوفيد) وهم، بعدُ، تلاميذ في المرحلة الابتدائية.

كان الكاتالونيّ الحكيم يتحدث عن الأدباء الكلاسيكيين القدماء الكبار بكل بساطة ويسر، ودون تعقيد، وكأنهم قد كانوا، خلال حقبة أو

(١) خذاريف: جمع خذروف، وهو لعبة قديمة للأطفال، وتسمى في بعض بلاد الشام «البلبل» أو «الصبّاح»، وهو قطعة من خشب أو سواه مدبّبة الرأس يلف عليه خيط، ويلقى فيدور على الأرض بسرعة لفترة.

أخرى، رفاق سكنه. فكان يعرف عنهم أشياء كثيرة ينبغي ألا تكون معروفة. فقد كان يذكر، مثلاً، أن القديس (أوغستين) كان يلبس، تحت ثيابه، معطفاً من صوف لم يخلعه طوال أربعة عشر عاماً، وأنّ (أرنالدو فيلانوفا) الساحر كان عاجزاً منذ طفولته بسبب لسعة عقرب.

كان حبه للكلمة المكتوبة، وحماسته لها، أمراً يستدعي الإحترام والوقار، ويستثير في الوقت ذاته كثرة الأقاويل. حتى مخطوطاته نفسها لم تسلم من تلك الازدواجية. فحين تعلّم (ألفونسو) اللغة الكاتالانية كي يترجم تلك المخطوطات، وضع ملفاً منها في جيبه مع ما كان يملؤها به دائماً من قصاصات الجرائد والكتيّبات والأدلة الخاصة بالمهن النادرة الغريبة. وفي إحدى الليالي، فقد الملف عند الفتيات المومسات اللاتي كنّ يقدمن أجسادهن إتقاء الجوع. ولما علم العجوز الحكيم بذلك، أغرق في الضحك، بدلاً من أن يعاتبه ـ كما كان يخشى منه ـ وقال معلقاً: «ذلك هو المصير الطبيعي للأدب». ومن ناحية أخرى، لم تستطع قوة إنسانية أن تقنعه بالاّ يحمل صناديقه الثلاثة معه، حين قرّر العودة إلى مسقط رأسه. وقد أفرغ ما في جعبته من سباب وشتائم، باللغة الكارتاجينية على مفتشي سكة الحديد الذين حاولوا إرسال الصناديق بالشحن. ولكنه توصل، أخيراً، إلى إقناعهم بإبقائها معه في عربة الركاب المسافرين. وقد قال عندها:

ـ سوف ينحدر هذا العالم إلى الدرك الأسفل، عندما يسافر الناس في الدرجة الأولى، بينما يوضع الأدب في مركبة الشحن.

وكان ذلك آخر ما سمعه الناس من كلامه.

لقد قضى أسبوعاً أسود مضنياً وهو يعد آخر ترتيباته للرحلة. وكان كلما أزف الموعد إستشاط غيظاً، وطغت عليه الفوضى، فيضع الشيء في مكان ليجده في مكان آخر، حتى لكأنه كان يواجه نفس الأرواح

الشريرة التي عذبت فيرناندا. فيصرخ لاعناً شاتماً:

ـ مستعمرون. أبول على المرسوم (٢٧) لمحفل لندن المقدس.

اهتمّ به جيرمان وأوريليانو وساعداه. ساعداه كما لو كان طفلاً. فعلقا التذاكر ووثائق السفر، الخاصة به، فوق جيوبه بدبابيس محكمة. وأعدّا له قائمة مفصلة بما ينبغي عليه أن يفعله، منذ اللحظة التي يغادر فيها ماكوندو حتى ينزل في برشلونة. ولكن ذلك كله لم يحل دون أن يلقي، بين النفايات، بنطالاً كان يحوي نصف ثروته المالية، دون أن يدري.

في الليلة التي سبقت الرحلة، سمّر الصناديق، ورتّب ثيابه في حقيبة الملابس نفسها التي جلبها معه يوم جاء، وقطب حاجبيه الشبيهين بالسرطان، وأشار بيده، إشارة مباركة فظة جوفاء، إلى أكداس الكتب التي استطاع بها احتمال منفاه. وقال لأصدقائه:

ـ أيها الناس، أترك لكم كل تلك القاذورات.

بعد ثلاثة أشهر على رحيله، تلقوا منه غلافاً كبيراً فيه تسع وعشرون رسالة، وما يزيد على خمسين صورة تجمّعت له، في ساعات فراغه، في أثناء رحلته في أعالي البحار. كانت تواريخ كتابة الرسائل واضحة، مع أنه لم يذكر على أي منها أي تاريخ. فقد كان في الرسالة الأولى يتحدث، بسخريته المألوفة، عن حوادث الرحلة، وعن رغبته في أن يلقي إلى البحر بربّان الباخرة الذي حاول منعه من إدخال الصناديق إلى حجرته، وعن سخف سيدة أفزعها أن يكون رقم حجرتها (١٣). ولم يكن ذلك نتيجة لتطيّرها من الرقم، وإنما لأنها كانت تعتقد أن هذا الرقم كان ينقصه شيء ما. وكان يتحدث عن الرهان الذي ربحه في أول عشاء، عندما عرف أن الماء الذي يقدم على الباخرة له طعم الشمندر

الليلي الخاص بينابيع (ليريدا). ولكنه، مع مرور الأيام، لم يعد يهتم بواقع الباخرة وما يجري على ظهرها. ذلك أن أبسط الأحداث أخذت تستبد به وتستثير حنينه. فطغت على ذاكرته الكآبة، وأخذ الحزن يستبد به، وتزداد وطأة ذلك عليه بازدياد ابتعاد الباخرة. وقد بدا الحنين المتزايد واضحاً في الصور. فقد كان في الأولى منها يبدو سعيداً بقميصه الرياضي، الشبيه بثياب المستشفيات، وبناصيته المكللة بالثلج، تحت أشعة شمس تشرين الأول (أكتوبر) الكاريبية. أما في الصور الأخيرة فكان يبدو متلفعاً بمعطف داكن، ووشاح حريري. وهو شاحب الوجه، وقد أصمته الغياب على متن مركب الحسرات والحزن، الذي يمخر اليمّ، كمن يسير وهو نائم، عبر المحيطات الخريفية.

كان جيرمان وأوريليانو يجيبان عن رسائله. وقد أكثرا من الكتابة في الأشهر الأولى التي تلت رحيله، حتى شعرا أنهما أقرب إليه منهم خلال المدة التي قضاها في ماكوندو. ولذلك بدأ حزنهم لفراقه وغضبهم لسفره يخف تدريجياً. وقد حدثهم كثيراً في البداية. فذكر لهم أن كل شيء كان ما يزال على ما كان عليه قبل رحيله إلى ماكوندو. فما يزال عنده في البيت الحلزون الوردي نفسه، وأن سمك الرنكة(١) المجفف ما يزال له الطعم نفسه على شطائر الخبز، وأن الشلالات في القرية ما تزال تعبق برائحة العطر، كما عهدها، عند حلول الظلام.

كانت رسائله ما تزال على صفحات من ورق دفاتر الملاحظات المدرسية السابقة، تنساب عليها الكتابة الأنيقة بالخط الأرجوانيّ القديم نفسه. وعلى الرغم من ذلك، كانت تلك الرسائل التي يتمالك فيها نفسه، ويشجعهم بها ويستثير حماستهم، دون شعور منه، تتحول

(١) من أنواع السردين.

تدريجاً إلى نوع من الرسائل العاطفية الشبيهة بأشعار الرعاة الرومانسية. ففي إحدى ليالي الشتاء، وبينما الحساء تغلي فوق نار الموقد، بدأ يشعر بالحنين إلى الدفء والحرارة حيث كان يجلس في مؤخرة مكتبته، وإلى دفق الشمس على أشجار اللوز الغبراء، وصفير القطار المدويّ خلال تراخي الناس في وقت القيلولة. كما كان يحن، في ماكوندو، إلى الحساء الشتائي في الموقد، وأصوات باعة القهوة المتجولين، وأسراب القبرات والحساسين في أيام الربيع.

واضطرب الكاتالونيّ الحكيم، وهو يجد نفسه ضائعاً بين نوعين من الحنين متقابلين، يواجه أحدهما الآخر، كمرآتين متوازيتين، فأضاع شعوره باللا واقع واللا معقول. وانتهى به الأمر إلى توجيه النصح إلى الأصحاب بأن يغادروا ماكوندو جميعاً، وبأن ينسوا كل ما علمهم إياه عن العالم والقلب الإنساني، وأن يبولوا على (هوراس)، وأن يتذكروا دائماً، أنى كانوا، أن الماضي لم يكن سوى كذبة، وأن لا عودة للذاكرة، وأن كل ربيع يمضي لا يمكن أن يُستعاد، وأن أعنف الحب وأطوله وأبقاه لم يكن في النهاية سوى حقيقة عابرة.

كان ألفارو أول من قبل النصيحة بمغادرة ماكوندو. فباع كل شيء، حتى النمر المدجّن الذي كان يغيظ المارّة في ساحة داره. ثم اشترى تذكرة سفر دائمة في قطار لا يتوقف عن السفر أبداً. وكان، في البطاقات التي أخذ يرسلها، يصف المحطات التي كان يعبرها بخيال شرود وإعجاب غير محدود، ويصف ما كان يشاهده، لمحاً سريعاً، من نافذة القطار باستطراد وإسهاب. فكان كأنما هو يجزىء قصيدة الزوال الطويلة إلى نتف يلقي بها في زوايا النسيان، فكان يصف الزنوج السود في حقول القطن في لويزيانا، والخيول المجنحة تسرح في مروج العشب الأزرق في كنتكي، والعشاق اليونانيين في أوقات الغروب اللاهبة في أريزونا. ويصف الفتاة

التي كانت ترتدي الكنزة الحمراء، وترسم المناظر بالألوان المائية قرب البحيرة في ميتشيغان، وكيف رفعت فرشاتها التي تلون بها إشارة أمل لا إشارة وداع، لأنها لم تكن تدري أنها كانت ترقب قطاراً عابراً لن يعود.

بعد ذلك، رحل ألفونسو وجيرمان في يوم سبت على أن يعودا يوم الإثنين الذي يليه. وانقطعت أخبارهما إلى الأبد. وهكذا، لم يبقَ بعد عام من رحيل الكاتالوني الحكيم عن ماكوندو سوى غابرييل، وهو في مهب الريح، يعيش على إحسان نيجرومانتا المتقطع حسب الظروف، ويجيب عن أسئلة في مسابقة طرحتها مجلة فرنسية، وكانت الجائزة الأولى فيها رحلة إلى باريس. وكان أوريليانو ؛ وهو صاحب الاشتراك في المجلة، يساعد غابرييل في وضع الإجابات، أحياناً في بيته، وفي معظم الأوقات وسط قوارير السيراميك، في الصيدلية الوحيدة الباقية في ماكوندو، في جو مشبع برائحة الدواء والتراكيب الكيماوية، حيث كانت تعيش (ميرسيدس) صديقة غابرييل السرّية. وكان ذلك آخر ما تبقى من الماضي، ذلك الماضي الذي يتلاشى شيئاً فشيئاً، فيغدو أطلالاً، تتآكل من داخلها. فهي تنتهي، أو تكاد، في كل لحظة، ولكنها لا تنهي الإنتهاء، ولا تقوى على الزوال.

فقد بلغت البلدة أقصى حالات الخمول، إلى درجة أن غابرييل، بعد أن فاز في المسابقة ورحل إلى باريس، وهو يحمل غيارين من الملابس، وحذاء، ومؤلفات (رابليه) الكاملة، قد اضطر إلى أن يشير إلى سائق القطار كي يتوقف ويأخذه معه. صار شارع الأتراك القديم، في تلك الفترة، زاوية مهملة مهجورة، حيث كان بقايا العرب يستسلمون لأنياب الموت الزاحفة، وهم ما يزالون على عادتهم القديمة في الجلوس عند مداخل بيوتهم، على الرغم من أنهم قد باعوا، من زمن بعيد، آخر ذراع من أقمشتهم الطولية. ولم يبقَ في ظليل واجهات المعارض والحوانيت إلاّ

شخوص العرض المهشمة.

أما مدينة شركة الموز، التي ربما تكون باتريشيا براون قد حاولت استعادة أخبار تاريخها بروايتها لحفدائها، في ليالي القيظ التي لا تطاق، وهي تخلّل الخضر في (براتفيل) من (ألاباما)؛ أما تلك المدينة فقد غدت مرجاً عشبياً بريّاً.

أما الكاهن القديم الذي حلّ محل الأب أنجيل، والذي لم يهتمّ أحد حتى بمعرفة اسمه، فكان ينتظر رحمة الله، مستلقياً في أرجوحته، يعاني من داء المفاصل وأرق الشك، بينما كانت السحالي والجرذان تتنازع ميراث الكنيسة المجاورة.

في ماكوندو تلك، المنسية التي هجرتها حتى الطيور، وتراكم عليها الغبار، واستبدّ بها الحرّ، حتى لم يعد يستطيع المرء فيها أن يتنفس إلاّ بصعوبة بالغة، كانت أمارانتا أورسولا وأوريليانو يعيشان سجيني العزلة والحب، ورهيني عزلة الحب، في منزل يستحيل أن يقدر إنسان فيه أن يغمض عينيه، بسبب هدير النمل الأحمر. ولكن أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، على الرغم من كل ذلك، كانا الكائنين الوحيدين السعيدين، بل أسعد مخلوقين على وجه الأرض.

لقد عاد غاستون إلى بروكسل. فقد أعياه انتظار الطائرة. وذات يوم، وضع في حقيبته الصغيرة ما لا يستغني عنه من حاجاته الضرورية، وملف مراسلاته. ثم سافر وهو عازم على العودة جواً، قبل أن يخسر الامتياز لمجموعة من الطيارين الألمان، الذين تقدّموا لسلطات الإقليم بعرض يشتمل على مشروع أكثر طموحاً من مشروعه.

وتابع أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، منذ أول عصر التقيا فيه، إقتناص كل لحظة كان الزوج يغفل فيها عنهما، ولو أنها كانت قليلة، فيقبلان على ممارسة الحب بنهم مشبوب العواطف والشهوة. وكثيراً ما كانت

عودة الزوج المفاجئة تقطع ما تواصل من جماحهما. فلما أصبحا وحيدين في الدار غرقا في انتهاب ما فاتهما من حب. تجرفهما عاطفة ملتهبة، لا تعرف الإتزان، ولا يحكمها تعقّل، ترتعد لها فرائص فيرناندا في قبرها، حتى كانا من جموح العاطفة في توتر دائم. وكانت آهات أمارانتا أورسولا، ومواؤها وتأوهاتها، وصرخات معاناتها، وأغاني نشوتها، تنطلق متفجرة في نحو الساعة الثانية بعد الظهر على المائدة في قاعة الطعام، كما تتفجر في الساعة الثانية قبل الفجر في المخزن. وكثيراً ما كانت تصيح ضاحكة :

ـ أشد ما يؤلمني هو الزمن الطويل الذي ضيّعناه.

ورأت أمارانتا ـ أورسولا، وهي في ذروة عشقها ونشوتها، قوافل النمل الأحمر المتواصلة الهائلة، وهي تجتاح البستان، وتشبع نهمها الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ، بقرض أعمدة البيت وأخشاب الدار الأخرى. شاهدت ذلك السيل العارم، من الحمم الحية، يستولي على الشرفة من جديد. فلم تكترث، ولم تبالِ بردّ ذلك الاجتياح حتى وصل الغزو إلى غرفة نومها.

وأهمل أوريليانو الصحائف والرقاع، ولم يعد يخرج قط من الدار. وكان يجيب، كيفما اتفق، عن رسائل الكاتالوني الحكيم.

وفقد كلاهما معنى الواقع، ومفهوم الزمن، والصلة بالحياة العادية ووقعها. وسدّا الأبواب والنوافذ، كي لا يضيعا شيئاً من الوقت في ارتداء الثياب وخلعها. فكانا يسرحان في البيت، يروحان ويجيئان، كما كانت ريميدوس الجميلة تشتهي أن تفعل. وكانا يعبثان عاريين، ويتدحرجان فوق التراب وفوق الوحل في فناء الدار عاريين، حتى كادا، ذات يوم عصراً، يغرقان في الحوض. وخلال فترة قصيرة من الزمان، خربا في البيت أكثر مما خرّب النمل الأحمر : فقد حطما أثاث الصالة. ومزقا، في

جنونهما الخارق، أرجوحة العقيد أوريليانو بوينديا، التي صمدت تحت وطأة غراميات الحرب الحزينة. وقطعا الفرشات وأفرغا حشوتها على الأرض، حتى كادا يختنقان في زوابع من القطن.

كان أوريليانو عاشقاً نهماً، وكانت شريكته مثله. ولكن أمارانتا ـ أورسولا، وهي التي كانت الآمرة الناهية، في ذلك الفردوس المنكوب، بعبقريتها الخرقاء وظمئها الخيالي، حتى لكأنها أطلقت في الحب طاقة لا تقهر، طاقة تضارع طاقة جدتها الثالثة التي هدرتها في صنع حلويات الكراميلا على هيئة حيوانات صغيرة.

وفيما كانت أمارانتا ـ أورسولا تغنّي نشوة وسعادة وتكاد تموت ضحكاً لأفانينها في مواقف الحب، كان أوريليانو يتحول شيئاً فشيئاً، إلى إنسان صامت منطوٍ على نفسه، لأن عاطفته بدأت تنكفىء على ذاتها، وكانت شديدة محرقة.

لقد بلغا معاً أقصى الأفانين، وأكثر الأوضاع عجباً وتطرفاً، حتى طوّح بهما جنونهما، وأنهكتهما إثارة ما كانا فيه، فكانا يستغلان حالة إجهادهما إلى أبعد الحدود. وانتهى بهما المطاف إلى عبادة جسديهما. فاكتشفا أن فترات الاستراحة في المضاجعة والحب تنطوي على احتمالات ، وتمنح آماداً لم تعرف بعد ، وهي تتفوق في متعتها وغناها على كل صنوف الشهوات والرغائب. فبينما كان أوريليانو يدغدغ نهدي أمارانتا ـ أورسولا الأتلعين ويدلكهما بزلال البيض، أو يطرّي بزيت جوز الهند فخذيها البضّين وردفيها المكوّرين كحبّتي درّاق وبطنها المنساب كالسفح، كانت هي تلاعب ذكره وتعبث به كأنه دمية. فترسم له عينين كعيني المهرّج بأحمر شفتيها، وشارباً كشارب التركي بقلم كحلها، وتضع في عنقه عقدة كأنها ربطة من حرير، ثم تضع على رأسه قبعة من ورق الفضة.

وذات ليلة، دهنا جسميهما، من قمة الرأس حتى أخمص القدم، بمربى الدراق، ولحس كل منهما جسم الآخر لعقاً ككلبين، ثم غرقا في المضاجعة وتعاطي الحب كمجنونين على أرض الشرفة في الدار. ولم يوقظهما من نشوتهما إلاّ سيل من النمل آكل اللحم، كان على وشك أن يمزقهما ويلتهمهما حيّين.

كانت أمارانتا أورسولا تردّ على رسائل زوجها غاستون في فترات الراحة المتباعدة التي كانت تتيحها لها النشوة في حياة الحب. وكان لديها شعور طاغ بأنه بعيد ومشغول، وأنّ رجوعه مستحيل. وقد كتب لها في إحدى أوائل رسائله يخبرها بأن شركاءه قد أرسلوا له الطائرة فعلاً، ولكن أحد وكلاء الشحن في بروكسل أرسلها، خطأ، إلى تانجانيقا، حيث تمّ تسليمها إلى قبيلة الماكوندوس المنتشرة هناك. وقد نشأ عن هذا الخطأ مضاعفات وصعوبات كثيرة، حتى إن استرداد الطائرة قد يحتاج إلى مدة سنتين. وهكذا استبعدت أمارانتا أورسولا من ذهنها إمكان عودته في وقت غير مناسب.

أما أوريليانو فقد انقطعت صلاته بالعالم الخارجي، إذ لم يبقَ هناك مما يصله بخارج الدار سوى رسائل الكاتالوني الحكيم، والأخبار التي كانت تصله من غابرييل عن طريق ميرسيدس، الصيدلانية الصامتة. وقد كانت تلك الأخبار، في البداية، حقيقية وذات معنى. ولكن غابرييل أعاد تذكرة رحلة العودة إلى شركة الطيران واستردّ ثمنها، كي يبقى في باريس، يبيع الجرائد والصحف القديمة والزجاجات الفارغة التي كانت الخوادم تلقي بها خارجاً، من فندق كئيب قاتم الجو في شارع (دوفين). وكان أوريليانو يتخيله، بكنزته ذات القبة العالية التي لا يخلعها إلاّ عندما تزدحم مقاهي (المونتبارناس) بالعشاق الربيعيين. كان يقضي نهاره نائماً، ويكتب في الليل كي ينسى الجوع ويبعد شبحه عنه، في تلك الغرفة التي

كانت تنبعث منها رائحة القنبيط المغلى، والتى قُدِّرَ لـ (روكامادور) أن يموت فيها. ثم بدأت رسائله تزداد غموضاً، تدريجياً، وصارت أخباره، شيئاً فشيئاً، أقل يقينية. وغدت رسائل الكاتالوني الحكيم قليلة متباعدة وكئيبة حزينة. فاعتاد أوريليانو أن يفكر في أخبار صاحبيه كما كانت أمارانتا ـ أورسولا تفكر في زوجها. وظلاّ معاً يعومان في عالم فارغ من كل شيء، سوى حقيقة واحدة، يومية خالدة، هي الحب.

ودون سابق إنذار، وصل نبأ عودة غاستون. فكان له وقع الصاعقة في عالم اللا وعي السعيد. فتح كل من أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا عينيه، وغاص كل منهما في روح الآخر يسبر أعماقه، ويد كل منهما على قلبه وهما يحدقان في الرسالة. وعندها أدركا أنهما كانا من القرب والمحبة، حتى غدا كل منهما الآخر، فباتا يفضلان الموت على الانفصال. وعندها كتبت أمارانتا ـ أورسولا إلى زوجها رسالة حافلة بالوقائع المتناقضة. فأكدت له، في الرسالة، حبها، وأنها قد عيل صبرها لرؤيته. ولكنها أعلنت له، في الرسالة نفسها، أن القدر قد كتب عليها ألاّ تستطيع الحياة دون أوريليانو.

وخلافاً لما توقعه أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، أرسل إليها غاستون رسالة جوابية مطوّلة، في صفحتين كبيرتين، كانت في غاية الصفاء والهدوء، حتى كادت تبدو نصحاً أبوياً. فقد كرّس معظم الرسالة لتحذيرهما من الانسياق وراء العواطف، ومن كبوات الجموح. وختم الرسالة بفقرة تمنى لهما فيها، دون لبس أو إبهام، أن يكونا سعيدين كما كان هو خلال خبرته الزوجية القصيرة.

ولم يكن ذلك الموقف متوقعاً منه، ولا سيما من قبل أمارانتا ـ أورسولا. فشعرت بالإهانة لأنها بدت كما لو أنها قد وفرت لزوجها الذريعة التي كان ينتظرها كي يدعها ويمضي، تاركاً إياها تواجه مصيرها.

وتعمق حنقها، وازدادت ضغائنها حين أرسل إليها رسالة من ليوبولدفيل، بعد سنة من ذلك، وبعد أن توصل إلى استلام الطائرة، يطلب منها فيها، ببساطة، أن ترسل له دراجته، لأنها الشيء الوحيد الذي بقيت له قيمة عاطفية لديه، من كل ما تركه في ماكوندو.

احتمل أوريليانو، بصبر، غضب أمارانتا أورسولا وحنقها الشديد. وبذل كل جهد ممكن، كي يثبت لها أنّ بوسعه أن يكون زوجاً جيداً في أيام الشدة والضيق، كما كان في أيام الفرح والسعة. أما مواجهة الحاجات اليومية التي بدأت تلحّ عليهما، بعد أن نفدت بقية الأموال التي تركها غاستون، فقد أوجدت بينهما رابطة من التضامن، لم يكن لها ذلك الجمال ولا تلك الإثارة التي كانت للعواطف، ولكنها أقدرتهما على أن يحب أحدهما الآخر، وعلى أن يظلا سعيدين، كما كانا في أيام فجورهما وعشقهما الجنوني الجامح. وعندما ماتت بيلار تيريزا، كانا ينتظران طفلاً لهما.

حاولت أمارانتا ـ أورسولا، خلال فترة التثاقل والخمول التي رافقت حملها، أن تنشىء مشروع عمل، يقوم على صنع القلائد والعقود من فقرات السمك. ولكنها لم تجد زبائن لشراء قلائدها باستثناء ميرسيدس، التي اشترت اثنتي عشرة قلادة منها. وأدرك أوريليانو، للمرة الأولى، أنّ موهبته في اللغات، ومعرفته الموسوعية، ومقدرته النادرة على تذكر التفاصيل عن الأحداث القديمة في التاريخ والأماكن النائية، دون أن يراها، كانت كلها لا تسمن ولا تغني من جوع، تماماً كصندوق الحجارة الكريمة الحقيقية الذي كان عند زوجته، والذي، كان ينبغي أن يساوي كل المال الذي يستطيع جمعه كل من تبقى من سكان ماكوندو. وعلى الرغم من ذلك كان يعيشان بصعوبة حياة الكفاف.

لم تتخلَ أمارانتا ـ أورسولا عن ظرفها وخفة روحها، ولا عن مواهبها

وعبقريتها في أفانين الحب. وكانت قد تعوّدت، شيئاً فشيئاً، أن تجلس في الشرفة بعد الغداء، لكي تقضي بعض سويعات القيلولة، يقظى حالمة. وكان أوريليانو يصحبها. كانا يقضيان معظم الوقت، أحياناً، صامتين، حتى هبوط الظلام، جالسين وجهاً لوجه، يحدق الواحد منهما في عيني الآخر، ويتبادلان الحب القديم الجنوني الجموح. ثم اشتدّ عليهما عدم الاطمئنان للمستقبل، مما علق قلبيهما بالماضي. فتخيلا نفسيهما في جنة الطوفان المفقودة، يخوضان في جنبات الدار الموحلة، ويقتلان السحالي كي يعلقاها على أورسولا العجوز، ويتظاهران بأنهما يريدان دفنها حية. وقد كشفت لهم تلك الذكريات أنهما كانا دائماً سعيدين معاً، ومنذ أن كانت لهما ذكريات تجمع بينهما.

وبينما كانت أمارانتا أورسولا تنبش ذكريات الماضي، تذكرت ذلك العصر الذي دخلت فيه إلى مشغل صياغة الفضة، وأن أمها قد روت لها أنّ أوريليانو الصغير لم يكن له أب، أو لم يكن ابن أحد منهم، لأنهم وجدوه في سلة طافية على وجه ماء الطوفان. وعلى الرغم من إيمانهما بأن تلك الرواية لم تكن صحيحة، إلاّ أنهما لم يكن لديهما، من المعلومات، ما يدحضها ويوصلهما إلى النبأ الصحيح. فالشيء الوحيد الذي كانا على يقين منه، بعد مراجعة كل الاحتمالات، هو أنّ فيرناندا لم تكن أم أوريليانو. وقد رجّحت أمارانتا أورسولا الاعتقاد بأنه إبن بيترا كوتيس، التي لم تحفظ عنها شيئاً سوى القصص المخجلة المعيبة. وقد أحدث ذلك الافتراض، في أعماقها انقباضاً وكآبة، وفي قلبها رعباً هائلاً.

أما أوريليانو فقد كان يعذبه خوفه من يقينه بأنه أخو زوجته. ولذلك سارع إلى الكنيسة، لكي يبحث، في أكداس الأرشيف المترطبة التي يعبث فيها العث قضماً وفساداً، عن دليل يتصل بأبويه وانتسابه. وكانت

أقدم شهادة عمّاد، عثر عليها، تعود إلى أمارانتا بويندیا، التي عمّدها الأب نيكانور رينا، عندما بلغت سن الرشد. وكان ذلك في الحقيبة التي كان يحاول فيها أن يثبت وجود الله باللجوء إلى وسائل الاحتيال بالشوكولاتة.

ثم ابتدأ أوريليانو بالتوهم أنه كان واحداً من أبناء العقيد أوريليانو بويندیا السبعة عشر، الذي كان كل منهم يدعى أوريليانو. فبحث عن شهادات ولادتهم في أربعة مجلدات، ولكنه تبيّن أنّ تواريخ عمّادهم ترجع إلى أوقات قديمة بالنسبة إلى عمره. ولما رآه الكاهن، المريض بداء المفاصل، وهو ضائع في متاهات البحث عن القرابة والنسب، يرتجف قلقاً بسبب شكوكه ووساوسه، وقد كان يرقبه من أرجوحته، سأله بلطف وودّ عن إسمه، فأجابه قائلاً :

ـ أوريليانو بويندیا.

فقال الكاهن بثقة تامة :

ـ إذن، لا تتعب نفسك بالبحث. فمنذ زمن بعيد، كان يوجد هنا شارع بهذا الإسم. وقد إعتاد الناس، في ذلك الوقت، أن يسموا أبناءهم بأسماء الشوارع.

فاستشاط أوريليانو غضباً وصاح قائلاً :

ـ هكذا، إذن، فأنت لا تصدق الأمر أيضا !!

ـ أصدّق ماذا؟

فأجاب أوريليانو :

ـ إنّ العقيد أوريليانو بويندیا قد خاض اثنتين وثلاثين حرباً أهلية وخسرها جميعاً. وإنّ الجيش قد حاصر ثلاثة آلاف عامل وحصدهم بنار رشاشاته، وانّ جثثهم قد شحنت، في قطار مؤلف من مئتي عربة،

ليُلقي بها في البحر.

وحدّق فيه الكاهن بإشفاق حزين عميق، وتأوّه وهو يتأمله، طولاً وعرضاً، وقال له :

ـ آه يا بنيّ. يكفيني أن أكون على يقين بأني وإياك موجودان فعلاً في هذه اللحظة.

وهكذا تقبّل أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا قصة السلة، لا لأنهما آمنا بها، بل لأنها تخلصهما من الوساوس والشكوك التي كانت تحيق بهما. وكانا، بالقدر الذي يتقدم فيه حمل أمارانتا ـ أورسولا، يكادان يستحيلان كائناً واحداً، ويتكيفان للعزلة في البيت، ويندمجان فيها، وهي الحالة التي كانت لا تحتاج إلاّ إلى القشّة الأخيرة التي تقصمها فتهوي. واقتصرا، من البيت، على مجال ضيق يكفي للضروري من العيش، كانت حدوده غرفة ميراندا ، التي عرفا فيها سحر الحب ، وبداية الشرفة ، حيث كانت أمارانتا أورسولا تجلس، وهي تحوك أحذية وقبعات من نسيج الصوف للطفل المنتظر، بينما يجلس، قبالتها، أوريليانو يجيب عن رسائل الكاتالوني الحكيم.

أما سائر الدار فكان عرضة للخراب الداهم، مستسلماً للزوال المحتوم. وغاب مشغل صياغة الفضة، كما غابت غرفة ملكيادس، ومملكة سانتا صوفيا (التقية) الصامتة، في أعماق الأدغال المتشابكة في الدار، حتى لم يعد أحد يجرؤ على دخولها.

وهكذا كان أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا يعيشان محاصرين بقسوة الطبيعة، ويتابعان قطف أزهار الأوريجان والبيجونيا، ويدافعان عن عالمهما الخاص بخطوط حدودية مرسومة بالكلس، وكأنهما ينشئان آخر خنادق الحرب التاريخية بين الإنسان والنمل.

تهدّل شعر أمارانتا ـ أورسولا الطويل المهمل، وظهرت على وجهها

بقع شاحبة، وتورّمت رجلاها، فتشوّه جسم تلك المخلوقة الرائعة الجمال، المغري بالحب والغزل، وتغيّر مظهرها الذي كان يتفجر طاقة وحيوية شباب يوم وصلت إلى الدار، ومعها قفص طيور الكناري سيئة الحظ، ومعها كذلك زوجها الأسير. ولكن كل ذلك التغير لم يغير حيوية روحها. فقد كانت تقول، ضاحكة، أحياناً :

ـ اللعنة. من كان يصدق أننا سننتهي فعلاً إلى العيش كأكلة لحم البشر.

وانبتّ آخر خيط كان يربطهما بالعالم الخارجي، حين وصلتهما رسالة، وهي في الشهر السادس من حملها. ولم تكن تلك الرسالة، قطعاً، من الكاتالوني الحكيم. كانت الرسالة من برشلونة، وخط الغلاف عاديّ بالحبر الأزرق، يذكر بالكتابة الإدارية. وقد كانت الرسالة ذات مظهر بريء، حياديّ، وليست لها ملامح شخصية عدائية. فخطفها أوريليانو من بين يدي أمارانتا ـ أورسولا، وهي تحاول فتحها، قائلاً لها :

ـ لا يا عزيزتي. لا تفتحي هذه الرسالة. فأنا لا أريد أن أعرف ما فيها.

كان إحساسه صائباً. فالكاتالونيّ الحكيم لم يكتب قطّ من بعد، مرة أخرى. وقد ظلت الرسالة الغريبة، التي لم يقرأها أحد، تحت رحمة العث، راقدة على الرف الذي نسيت عليه فيرناندا، ذات يوم، خاتمها. ظلت الرسالة تأكل ذاتها بذاتها، تحترق بنار أخبارها المشؤومة، بينما كان العاشقان، المستوحدان في عزلتهما، يبحران ضد تيار تلك الأيام من فصول المسرحية الأخيرة، تلك الأيام ذات الأوقات المشؤومة المنحوسة، وهي تمر بهما، فيحاولان، عبثاً، أن يحرفاها إلى فيافي زوال الأوهام والنسيان.

أحسّ أوريليانو وأمارانتا أورسولا بما كان يهدّد وجودهما، فأمضيا

الأشهر الأخيرة يمسك أحدهما بيد الآخر، لعلّ المشروع الذي بدآه بفجور جامح مجنون يكتمل في حب هادىء بريء. كانا إذا رقدا في الفراش، للنوم، يحتضن الواحد منهما الآخر، ويحيطه بذراعيه، فلا يخشيان انفجار النمل من فجاج الأرض تحتهما، ولا ضجيج العث، ولا الصفير الذي لا ينقطع، يندّ عن الأعشاب والطفيليات الضارّة النامية في الغرفة المجاورة. ولطالما كانت توقظهما تحركات الموتى المحمومة. فقد سمعا أورسولا، مرة، تصارع قوانين الخلق كي تحفظ سلالتها، وسمعا خوزيه أركاديو بوينديا يبحث عن حقيقة الاختراعات الكبرى الموهومة، وفيرناندا تصلي، والعقيد أوريليانو بوينديا يعاني معانداً، في وهم ذاتي، أمام إحدى خططه العسكرية، وإزاء السمكات الذهبية الصغيرة، وأوريليانو الثاني يموت من العزلة، رويداً رويداً، في حمى دوار ولائمه المجونية المضنية. وعندها عرفا أن الوساوس الكبرى المسيطرة يمكن أن تتغلب على الموت. وعادا إلى الشعور بالسعادة في حياتهما، وهما على يقين من أنهما سيظلان عاشقين، يحب أحدهما الآخر، حتى عندما يغدوان شبحين، وإلى زمن أبعد من ذلك الذي تظهر فيه سلالات أجناس أخرى من الحيوانات، فتسلب من الحشرات جنة البؤس التي استطاعت الحشرات أخيراً أن تسلبها من الإنسان.

وفي الساعة السادسة من بعد ظهر ذات أحد، أحسّت أمارانتا ـ أورسولا بإرهاصات الولادة المتمثلة ببدايات معاناة المخاض. فوصلت إلى البيت تلك المرأة الباسمة ، صاحبة النزل الذي كان يؤوي البنات المومسات اللواتي كنّ يقدّمن أجسادهن لقاء طعامهن. فأضجعتها على طاول غرفة الطعام، واعتلت فوق بطنها، وأخذت تعدو فوقها بطريقة فظة، حتى غطّى على صراخها وصياحها ثغاء طفل ذكر شديد عظيم. واستطاعت أمارانتا ـ أورسولا أن تشاهده، عبر دموعها، وأن تلاحظ أنه من أفضل

سلالة آل بوينديا. فقد كان كبيراً وشديداً وعنيداً مثل خوزيه أركاديو، وله عينان مفتوحتان حادتا النظر كعيني أوريليانو. وقد كان فيه كل ما يبشر ببداية جديدة لهذه السلالة، ينقيها من كل آفاتها السلبية السيئة، وينجيها من عزلتها، لأنه الوحيد الذي نشأ بالحب، وولد من الحب، عبر قرن من الزمان. فعلقت قائلة :

ـ إنه آكل بشر حقيقي، وسوف ندعوه رودريجو. وعارض زوجها قائلاً:

ـ لا. سوف ندعوه أوريليانو، وسوف ينتصر في اثنتين وثلاثين حرباً.

وبعد أن قطعت له القابلة حبل الخلاص، بدأت تمسح، بخرقة، ما كان عالقاً به من الدهن المزرق، الذي كان يغطي جسمه، بينما كان أوريليانو يحمل بيده المصباح. فلما كفأته على بطنه، ظهر له شيء يختلف فيه عن بقية البشر، فاقتربوا منه وانحنوا ليروه جيداً. لقد كان ذلك ذنب خنزير.

لم يخف أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، ولم ينزعجا لذلك. فقد كانا يجهلان تلك الحالة كسابقة في العائلة، وما كانا ليذكرا تحذيرات أورسولا المخيفة. وهدأت القابلة من روعهما، زاعمة أن ذلك الذنب يمكن قطعه والتخلص منه عندما يبلغ الطفل عمر ظهور الأسنان. ولم يتح لهما وقت للتفكير في الأمر، من بعد، لأن أمارانتا ـ أورسولا كانت تنزف دمها بشدة، ولم يبقَ من سبيل لإيقاف النزيف.

حاولا أن يساعداها باستخدام رفادات من نسيج العنكبوت وضمادات معبأة بالرماد، ثم بكرات من الرماد. ولكن ذلك كله كان كمن يحاول سدّ نبع باليدين. وقد جهدت المسكينة، في الساعات الأولى، أن تحافظ على مزاجها المرح. فأخذت بيد أوريليانو، حين رأته خائفاً، وتوسلت إليه ألاّ يقلق ولا ييئس، لأن من كان مثلها من البشر لا يموت إلا بإرادته،

بينما كانت تتفجر ضحكاً، حتى تكاد تختنق، من تلك الوسائل الوحشية التي كانت تستخدمها القابلة. ولكنها كانت، بالقدر الذي كان الأمل يهجر فيه أوريليانو ويتركه حطاماً، تتلاشى شيئاً فشيئاً، كما لو أن النور الذي كان يسطع عليها بدأ يذبل ويخبو حتى أدركها سبات عميق غرقت فيه.

في فجر يوم الإثنين، جاؤوا إليها بامرأة تتلو عند رأسها صلوات النجاة التي لا تفشل في علاج الإنسان والحيوان، ولكن دم أمارانتا ـ أورسولا العاشق الحبيب ما كان يفيد فيه إلاّ الحب.

ففي أصيل ذلك اليوم، وبعد أربع وعشرين ساعة من الكفاح اليائس، عرفوا أنها ماتت لأن دفق الدم قد توقف دون علاج، وغدا عارضها شاحباً نحيلاً، وغام وجهها ورحلت منه الحمرة الوردية، فآلت إلى فجر من مرمر، ثم إنها إبتسمت من جديد.

عند هذه المرحلة. أدرك أوريليانو كم كان يحب أصدقاءه، وكم كان يفتقدهم، وكم كان على إستعداد لأن يقدّم كي يكون معهم في تلك اللحظة.

وضع الطفل في السلة التي أعدّتها له أمه، وغطى بالدثار وجه الجثة، وراح يتيه في طرقات البلدة، يسير على غير هدى، وبلا هدف، ربما يبحث عن منفذ يؤدي به إلى الماضي.

طرق باب الصيدلية، التي انقطع عن زيارتها في الفترة الأخيرة، فوجد مكانها منجرة. فتحت له الباب امرأة عجوز، بيدها قنديل، فرثت لحالة الضياع التي كان فيها، وأصرّت على أنه لم تكن قط هناك صيدلية، وأنها لم تعرف، في حياتها، امرأة ذات جيد ناحل أتلع وعينين ناعستين، تدعى ميرسيدس. .

وبكى أوريليانو، وهو يسند جبهته إلى باب المكان الذي كان يوماً

مكتبة للكاتالوني الحكيم. بكى، وهو يدرك أنه كان يذرف كل ما فاته من دموع، على موت آثر ألاّ يبكيه في حينه، لعله لا يفصم عرى سحر الحب. وحطّم قبضتيه على جدران الملهى المعروف بـ «الطفل الذهبي»، وهو ينادي بيلار تيرنيزا، غير آبه بدوائر الضوء البرتقالي المشعة، التي كانت تعبر السماء، والتي طالما تأملها في ليالي الأعياد، بدهشة طفولية، وهو قائم في ساحة طيور الكروان.

في آخر حفلة مفتوحة أقامها حيّ الدعارة ذو الأضواء الحمراء، المقفر الآن من الناس، عزفت مجموعة من آلات الأكورديون الموسيقية أغاني وألحان روفائيل إسكالونا، ابن أخي المطران ووارث أسرار فرانسيسكو الإنسان. يومها، قدّم له صاحب الحان، الذي تقوّست ذراعه وشلّت لأنه رفعها مرة في وجه أمه، علبة مشروب كحولي خفيف، وردّ له أوريليانو الدعوة بأن قدّم له هو الآخر علبة أخرى. وحدثه صاحب الحان عن سوء الحظ العاثر الذي أصاب ذراعه. وحدثه أوريليانو سوء الحظ العاثر الذي أحاق بقلبه، الذي أصابه الذبول وتقوّس وجمد، بشكل أو بآخر، لأنه تصدى لأخته. وانتهى بهما المقام إلى البكاء معاً، وأحسّ أوريليانو، للحظة، أنّ ألمه قد زال. ولكنه، عندما وجد نفسه وحيداً من جديد، في آخر فجر لماكوندو، فتح ذراعيه في وسط الساحة، استعداداً لإيقاظ العالم كله. وصاح من أعماق أعماقه وبكل ما أوتي من قوة:

ـ الأصدقاء عصبة من أبناء الحرام.

تلقفته نيجرومانتا فأنقذته من مستنقع قيء ودموع. فنقلته إلى غرفتها، حيث غسلته ونظفته وقدمت له كأساً من الحساء. وظناً منها أنها تواسيه، تناولت قطعة من الفحم، ومسحت كل ديون الحب التي كانت لها عليه، والمعلمة خلف الباب. ثم تطوّعت بالحديث عن ذروة حزنها وكآبتها في عزلتها، وعن خيباتها في الحب، لعلها تسرّي عنه بألاّ تدعه

وحيداً مع أحزانه ودموعه. وعندما أفاق من نعاس عابر، وغفوة قصيرة، صحا أوريليانو على الصداع يكاد يفجر رأسه. ففتح عينيه وتذكر الطفل.

لم يجد أوريليانو سلة الطفل. فغمره فرح مفاجىء عارم؛ فقد ظنّ أنّ أمارانتا ـ أورسولا عادت إلى الحياة كي تهتمّ بأمره وتعتني به. ولكن الجثة كانت ككومة من الحجارة تحت الغطاء. وتذكر أنه وجد باب الغرفة مفتوحاً، عندما دخل. فمرّ من الشرفة التي تعبق بعطر الأوريجان الصباحي، ثم وصل إلى غرفة الطعام، حيث كانت ما تزال فيها آثار الولادة: القدر الكبيرة، والبياضات الملطخة بالدم، وأواني الرماد، وحبل خلاص الطفل المفتول على فرشة ممدودة على الطاولة بين المقص والرباط.

خيّل إليه أن القابلة قد عادت في الليل كي تأخذ الطفل، فشعر بشيء من الهدوء، وحاول أن يفكر بوضوح. فتهاوى على المقعد الهزّاز الذي كانت ربيكا تجلس فيه، في العهد الأول من حياة البيت، كي تعلم دروس التطريز، والذي كانت أمارانتا تلعب فيه لعبة الدامة (الشطرنج الصيني) مع العقيد جيرينيلدو ماركيز، والذي خاطت فيه، أخيراً، أمارانتا ـ أورسولا ثياب الطفل. وخلال تلك اللحظة الخاطفة من الوضوح، شعر بأن روحه لم تعد قادرة على أن تقاوم كل أثقال ذلك الماضي السحيق.

كان يبدو جريحاً، نفذت فيه حراب الحنين القاتلة، ما كان منها ذاتياً، وما سببه له الآخرون. فراح يتأمل، بإعجاب، صمود بيوت العناكب المنسوجة على شجيرات الورد الميتة، ومثابرة نبات الجودار وصبره، وهدوء الهواء وصفاءه في ذلك الفجر المتألق من شباط (فبراير).

وعندما رأى الطفل. كان كقربة منفوخة جافة، وقد تجمّع عليه كل نمل الدنيا، يحاول كل سرب منه أن يسحبه نحو وجره تحت الأرض،

سالكاً ذلك الرصيف الحجري الممتدّ في البستان الصغير. ولم يستطع أوريليانو أن يبدي أية حركة، لا لأن الدهشة قد قيّدته، أو لأن الخوف قد شلّ حركته، بل لأن مفاتيح ملكيادس النهائية قد تكشفت له في تلك اللحظة العجيبة. فقد رأى نبوءة الصحائف والرقاع جلية واضحة، وقد توضحت تماماً في نظام زمان الإنسان ومكانه :

«أول السلالة مربوط إلى شجرة، والأخير منها يلتهمه النمل».

لم يكن أوريليانو (الصغير) ، في أية لحظة من حياته ، في مثل ذلك الوضوح الذي سطع عليه في تلك اللحظة. فقد نسي موتاه وكل ما يتصل بموتاه. ونسي كل آلام موتاه. وعمد إلى أبواب البيت والنوافذ فسمّرها بعوارض فيرناندا الخشبية، كي يحول دون أن يزعجه أيّ إغراء يتسرّب إليه من العالم الخارجي. ذلك أنه كان يعلم، الآن، أن قدره مدوّن في رقاع ملكيادس.

وجد الرقاع سالمة، لم تُمس بأذى، بين النباتات الأقدم من التاريخ، والمستنقعات التي ينبعث منها البخار، والحشرات البرّاقة، التي أزالت من الغرفة كل أثر لوجود البشر على الأرض.

لم يطق صبراً حتى يخرجها إلى الضوء. فعمد إليها، وهو ثابت في مكانه. وراح يلتهمها قراءة بذهنه وعينيه. ولم يجد فيها أدنى صعوبة، حتى لكأنها كانت مكتوبة بالإسبانية، وكأنه كان يقرؤها في وضح أشعة الشمس الباهرة عند الظهيرة. فبدأ يحل رموزها ويقرؤها بصوت عال.

كان ذلك تاريخ العائلة، كتبه ملكيادس، ففصل فيه حتى لم تفته أدق تفاصيل الحياة اليومية، مهما بدت تافهة وبسيطة. ويعود تاريخ الكتابة إلى مئة عام من الآن. وقد كتب ذلك التاريخ باللغة السنسكريتية، لغته الأم، ورمّز الأسطر أو الأبيات الشفعية أو الزوجية بالرمز الشخصي للإمبراطور أوغست، والأسطر أو الأبيات الوترية أو الفردية بالرمز

العسكري اللاسيديموني.

وكانت آخر عقبة قد بدأ أوريليانو بتخطيها والنفاذ منها، يوم صعقه حب أمارانتا ـ أورسولا، هي أن ملكيادس لم يرتب الوقائع والأحداث حسب الزمن الذي تعارف عليه البشر. فقد يتابع الأحداث اليومية عبر قرن كامل من الزمان، ويركزها بطريقة تمضي بها جميعاً، وتعرض كلٌّ ما يحدث منها في آن معاً، على الرغم من إختلاف المكان.

وأذهل ذلك الإكتشاف أوريليانو، فراح يقرأ بصوت جهوريّ، دون أن يقفز عن سطر واحد، تلك الأهازيج الغنائية، التي كان ملكيادس نفسه يسمعها لأركاديو، والتي لم تكن، في الواقع، سوى النبوءة الخاصة بإعدامه.

ووجد أوريليانو النبوءة بميلاد أجمل امرأة في الدنيا، وهي تصعد إلى السماء جسداً وروحاً. وعثر على النبوءة بميلاد التوأمين المرحومين اللذين تخليا عن دراسة الرقاع وحلّ رموزها، لا عن كسل أو انعدام مقدرة، وإنما لأن محاولتهما كانت سابقة لأوانها.

وعند هذه المرحلة، لم يعد أوريليانو يطيق الانتظار حتى يعرف أصله، فقفز عن مقطع في الصحيفة من الرقاع. وعندها تحركت الريح دافئة ورطبة شديدة، ملأى بأصوات من الماضي، وهمسات من الغرانيق(١) الحمراء القديمة، وتأوهات للخلاص من السحر والوهم كأنها الرؤيا التي تسبق أعتى ضروب الحنين. ولم يلحظ كل ذلك، لأنه كان، في تلك اللحظة، قد بدأ يكتشف أوائل مؤشرات وجوده، وإنتمائه الكينوني إلى حدّ شهواني يسعى إلى لذته، اندفع، منجرفاً بطيشه، إلى هضبة خرافية، وهو يبحث عن امرأة غاية في الجمال ولكنها لا يمكن أن تجعله سعيداً.

(١) الغرنوق : نوع من النبات الأحمر القاني يسمى إبرة الراعي .

سالكاً ذلك الرصيف الحجري الممتدّ في البستان الصغير. ولم يستطع أوريليانو أن يبدي أية حركة، لا لأن الدهشة قد قيّدته، أو لأن الخوف قد شلّ حركته، بل لأن مفاتيح ملكيادس النهائية قد تكشفت له في تلك اللحظة العجيبة. فقد رأى نبوءة الصحائف والرقاع جلية واضحة، وقد توضحت تماماً في نظام زمان الإنسان ومكانه :

«أول السلالة مربوط إلى شجرة، والأخير منها يلتهمه النمل».

لم يكن أوريليانو (الصغير) ، في أية لحظة من حياته ، في مثل ذلك الوضوح الذي سطع عليه في تلك اللحظة. فقد نسي موتاه وكل ما يتصل بموتاه. ونسي كل آلام موتاه. وعمد إلى أبواب البيت والنوافذ فسمّرها بعوارض فيرناندا الخشبية، كي يحول دون أن يزعجه أيّ إغراء يتسرّب إليه من العالم الخارجي. ذلك أنه كان يعلم، الآن، أن قدره مدوّن في رقاع ملكيادس.

وجد الرقاع سالمة، لم تُمس بأذى، بين النباتات الأقدم من التاريخ، والمستنقعات التي ينبعث منها البخار، والحشرات البرّاقة، التي أزالت من الغرفة كل أثر لوجود البشر على الأرض.

لم يطق صبراً حتى يخرجها إلى الضوء. فعمد إليها، وهو ثابت في مكانه. وراح يلتهمها قراءة بذهنه وعينيه. ولم يجد فيها أدنى صعوبة، حتى لكأنها كانت مكتوبة بالإسبانية، وكأنه كان يقرؤها في وضح أشعة الشمس الباهرة عند الظهيرة. فبدأ يحل رموزها ويقرؤها بصوت عال.

كان ذلك تاريخ العائلة، كتبه ملكيادس، ففصل فيه حتى لم تفته أدق تفاصيل الحياة اليومية، مهما بدت تافهة وبسيطة. ويعود تاريخ الكتابة إلى مئة عام من الآن. وقد كتب ذلك التاريخ باللغة السنسكريتية، لغته الأم، ورمز الأسطر أو الأبيات الشفعية أو الزوجية بالرمز الشخصي للإمبراطور أوغست، والأسطر أو الأبيات الوترية أو الفردية بالرمز

العسكري اللاسيديموني.

وكانت آخر عقبة قد بدأ أوريليانو بتخطيها والنفاذ منها، يوم صعقه حب أمارانتا ـ أورسولا، هي أن ملكيادس لم يرتب الوقائع والأحداث حسب الزمن الذي تعارف عليه البشر. فقد يتابع الأحداث اليومية عبر قرن كامل من الزمان، ويركزها بطريقة تمضي بها جميعاً، وتعرض كلّ ما يحدث منها في آن معاً، على الرغم من إختلاف المكان.

وأذهل ذلك الإكتشاف أوريليانو، فراح يقرأ بصوت جهوريّ، دون أن يقفز عن سطر واحد، تلك الأهازيج الغنائية، التي كان ملكيادس نفسه يسمعها لأركاديو، والتي لم تكن، في الواقع، سوى النبوءة الخاصة بإعدامه.

ووجد أوريليانو النبوءة بميلاد أجمل امرأة في الدنيا، وهي تصعد إلى السماء جسداً وروحاً. وعثر على النبوءة بميلاد التوأمين المرحومين اللذين تخليا عن دراسة الرقاع وحلّ رموزها، لا عن كسل أو انعدام مقدرة، وإنما لأن محاولتهما كانت سابقة لأوانها.

وعند هذه المرحلة، لم يعد أوريليانو يطيق الانتظار حتى يعرف أصله، فقفز عن مقطع في الصحيفة من الرقاع. وعندها تحركت الريح دافئة ورطبة شديدة، ملأى بأصوات من الماضي، وهمسات من الغرانيق(١) الحمراء القديمة، وتأوهات للخلاص من السحر والوهم كأنها الرؤيا التي تسبق أعتى ضروب الحنين. ولم يلحظ كل ذلك، لأنه كان، في تلك اللحظة، قد بدأ يكتشف أوائل مؤشرات وجوده، وإنتمائه الكينوني إلى حدّ شهواني يسعى إلى لذته، اندفع، منجرفاً بطيشه، إلى هضبة خرافية، وهو يبحث عن امرأة غاية في الجمال ولكنها لا يمكن أن تجعله سعيداً.

(١) الغرنوق : نوع من النبات الأحمر القاني يسمى إبرة الراعي .

وقد عرفه أوريليانو، وراح يتابع مسارب سلالته الخفية، وصولاً إلى ولادته التي يكتنفها الغموض. واكتشف اللحظة التي تمّ حمله فيها، مضغة في رحم أمه، في جوّ تحيق به العقارب والفراشات الصفراء في غرفة الاستحمام المسائي، حيث كان عامل ميكانيكي يشبع شهوته مع إمرأة كانت تمنحه جسدها بسبب تمردها.

وكان مستغرقاً في ما هو فيه من إكتشاف، فلم يشعر بهبة الريح القوية الثانية، التي انتزعت قوتها العاصفة الأبواب والنوافذ من مواقعها، وطوّحت بسطح الجناح الشرقي، واقتلعت الأساسات.

عندها، وحسب، إكتشف أوريليانو أنّ أمارانتا ـ أورسولا لم تكن أخته بل خالته، وأنّ السيد فرانسيس دريك قد هاجم ريوهاشا لسبب واحد هو أن يمكنهم من البحث عن بعضهم، في معارج تيه الدم المتشابكة، حتى يكون بإمكانهم إنجاب الحيوان الخرافي الذي يضع حداً للسلالة كلها.

وكانت ماكوندو قد إستحالت، عندئذ، إلى زوبعة رهيبة كالإعصار من الغبار والدمار، يذروها غضب توراتيّ عاصف. فقلب أوريليانو إحدى عشرة صفحة، قافزاً عنها، كي لا يضيع الوقت في وقائع وحقائق يعرفها تمام المعرفة. وبدأ يحل رموز اللحظة التي كان فيها ؛ يحل رموز اللحظة التي كان يعيشها وهو يعيشها، فيتنبأ عنه، في فعله ذاته، وهو يحل رموز آخر صحيفة من الصحائف والرقاع المخطوطة، فكان كأنما هو ينظر في مرآة ناطقة.

ثم قفز قفزة أخرى، وتخلى عن بعض الرموز والكلام، كأنما يستعجل النبوءات، كي يتأكد من تاريخ موته، والعلامات التي تسبقه، والعلامات التي ترافقه.

لكنه، قبل أن يبلغ البيت أو السطر الأخير، كان قد أيقن أنه لن يغادر

الغرفة التي كان فيها أبداً.

فقد كان مرئياً، أكثر مما كان متنبأ به، أن مدينة المرايا، أو مدينة السراب، سوف تجتثها الريح العاتية من الأرض وتمحو آثارها، حتى تنفيها عن ذاكرة الإنسان في تمام اللحظة التي ينتهي فيها أوريليانو بابيلونيا(١) من فك طلاسم الرموز في صحائف الرقاع. كما أدرك أوريليانو أنّ ما كان مدوّناً في تلك الرقاع لا يقبل التكرار. فهو أزليّ محتوم منذ بداية الوجود، وهو سرمدي سوف يظل إلى الأبد. فالسلالات التي حكم عليها القدر حكماً حتمياً، بزمن من العزلة يمتد مئة عام، لن تكون لها فرصة أخرى للعيش على وجه الأرض.

د. محمد الحاج خليل

انتهت الرواية

(١) نسبة إلى أبيه : موريسيو بابيلونيا.

قيل في هذه الرواية

قليلة هي الروايات التي تغير حياة الناس. وهذه واحدة من تلك الروايات.

«و. ل. و. ب. الغارديان»

هذه رواية كاسحة، تتسم بالتألق الفوضوي. وهي أقرب إلى الشعر منها إلى النثر، بل هي ملحمة موسيقية لا متناهية.

«التايمز»

هذه الرواية عمل أدبي غني، مكثف كالأدغال، حافل بالوهم المتوضّع، زاخر بالفعل، ثريّ بالمرح الحزين، يتدفق بالأحداث والفلسفة والتأمل، حتى ليدفعن إلى العجب.

«صنداي تايمز»

رائعة من الأدب الكلاسيكي الرفيع، حتى لكأن كاتبها ساحر فعلاً.

«سبكتاتور»

هذه خبرة لا تعدلها، في الغنى، خبرة أخرى.

«فاينانشل تايمز»

تصحو، بعد قراءة هذه الرواية الرائعة كمن يصحو من حلم : عقلك وخيالك جامحان بل ملتهبان. . وأمامك غابرييل غارسيا ماركيز العملاق كخياله وجبريته وعظمته. فهو والرواية مدهشان.

«نيويورك تايمز»

هذه الرواية من أجمل ما قرأت. وهي، على الرغم من سمة العزلة، التي تنسحب عليها حتى إختارها لها كاتبها إسماً، وعلى الرغم من

الحتمية التي ينظر بها المؤلف للأمور من زاويته، أشبه ما تكون بالحياة : شائقة وشائكة، بسيطة ومعقّدة، صافية ومكدّرة، مفرحة ومحزنة ؛ مشرقة وكئيبة، متفائلة ومتشائمة، حلوة ومرّة. إنها، ككل الأدب الرفيع، جديرة بأن تقرأ، وككل الحياة تستأهل أن تعاش.

«الدكتور محمد الحاج خليل»

مؤلف الرواية

غابرييل غارسيا ماركيز

ولد في بلدة صغيرة هي قرية (سياناجا) في إقليم (أراكاتاكا) من كولومبيا ، في العام ١٩٢٨م . وتخرج في الجامعة الوطنية في بوغوتا ، وأصبح صحفياً ، وسافر كثيراً . أقام في الفترة الأخيرة بضع سنين في برشلونة مع زوجته وولديه . من مؤلفاته الأخرى مجموعات من القصص القصيرة ، منها «إرينديرا البريئة» و«لا أحد يكتب للكولونيل . . .» و«خريف البطريرك» ، و«وقائع موت معلن» و«في ساعة نحس» .

هو واحد من أبرز الأدباء المعاصرين في أميركا الجنوبية . يؤمن بأن الأدب الجديد يجب أن يكون ملتزماً يحرِّض القارئ ويوعيه دون وعظ أو تلقين . وهو لذلك ملتزم بقضايا مجتمعه ، بل بقضايا الإنسان في العالم بأسره . فاز بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٨٢م .

وقد كان المبدعون الحقيقيون ، أمثال ماركيز ، دوماً رواداً يتقدمون الصفوف في الدفاع عن حقوق المظلومين ، كما يقول جلال النحاس في جريدة «العرب اليوم» الأردنية (العدد ١٧٢٨ بتاريخ ١٦ شباط / فبراير ٢٠٠٢م) . وهو ما يصدق على هذا الكاتب الكبير ، الذي أصدر بياناً يعلن فيه تضامنه التام مع الشعب الفلسطيني ، مستنكراً الممارسات الفاشية والاستعمارية والعنصرية والصهيونية ، ومبدياً اشمئزازه وإدانته للمجازر التي ترتكبها إسرائيل في المناطق الفلسطينية المحتلة ، ومعلناً إعجابه الشديد ببطولة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم الإبادة ، ويناضل من أجل كرامته ووطنه .

هذا البيان الإنساني الصادق الجريء جدير بكاتب كبير مناضل ضد الظلم عُرف بإبداعه ورواياته كـ«مئة عام من العزلة» التي تجاوزت (ماكوندو) وكولومبيا وأمريكا الجنوبية ، لتصل الناس في كل مكان ، كملاحم خالدة تضيء الحياة .

مترجم الرواية

الدكتور محمد خليل الحاج خليل



ولد في بلدة الكابري قرب عكا في الجليل - شمال فلسطين ، في أواخر العام ١٩٣٧ ، تلقى بعض تعلمه الابتدائي في الكابري ، وأكمل تعلّمه في لبنان ، الذي هاجر إليه مع أهله إثر الاحتلال الإسرائيلي لبلده في العام ١٩٤٨ .

نال البكالوريوس في اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي ، والليسانس في اللغة العربية والأدب العربي ، والماجستير في الأدب العربي من الجامعة اللبنانية في بيروت . ونال الدبلوم العلي في التربية وعلم النفس من جامعة بيروت العربية - فرع جامعة الإسكندرية ، ودرجة الدكتوراه في التربية من جامعة ساحل كليفورنيا في الولايات المتحدة الأميريكية .

انتقل مع أسرته من لبنان إلى الأردن ، بانتقال منظمة هيئة الأمم المتحدة / الأونروا ، التي كان يعمل فيها ، في العام ١٩٧٦ .

عمل جلَّ حياته ، وما يزال ، في ميدان التربية والتعليم : معلماً ثم خبيراً مع وكالة هيئة الأمم المتحدة (الأونروا) في لبنان والأردن ، وخبيراً دولياً ومستشاراً تربوياً مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم

والثقافة (اليونيسكو) في الجمهورية اليمنية ، وسلطنة عُمان ، ومملكة البحرين ، ودولة الإمارات العربية المتحدة ، والجمهورية العراقية . كما عمل مستشاراً تربوياً في الشركة العربية الأردنية لتطوير التعليم الخاص / كلية ومدارس روضة المعارف ، وعضواً في مكتبها الدولي ، ومحاضراً غير متفرغ في الجامعة الأردنية .

أكثر مؤلفاته ومترجماته المنشورة في اللغة ، والتفكير ، والتربية والإدارة التربوية ، والمناهج وطرائق التعلّم والتعليم ، والثقافة العربية الإسلامية ، والأدب ، والكتب المدرسية . له كتابات أدبية : شعرية ونثرية ، ومنها مجموعات قصصية ، معظمها غير منشور حتى الآن .

من مؤلفاته المنشورة كتاب «التعلم السريع» و«التقويم الذاتي في التربية» و«إدارة الصف وتنظيمه» ومن مترجماته «مئة عام من العزلة» و«السلوك الإنساني في الإدارة التربوية» و«جون ملتون والثقافة العربية الإسلامية» و«الصديقان» و«شجرة البيبوب» .